

الأمير

نيقولا مكيافيلي

الأمير

الأمير

وهو تاريخ الإمارات الغربية في القرون الوسطى

تأليف
نيقولا ماكيافيلي

ترجمة
محمد لطفي جمعة



الأمير

Il Principe

نيقولا ماكيافيلي

رقم إيداع ٥١٢٣ / ٢٠١٤
تدمك: ٤ ٧٢٧ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

المحتويات

ينبغي أن يكون المَلك كالغيث يُحيي إذا هَمَى، والسيل يَروي إذا طمى، والبدر يَهدي إذا سما، والدهر يُعمي إذا رمى.

الثعالبي

حياة نيقولا ماكيافيلي

ولد نيقولا ماكيافيلي لثلاثة أيام خلت، وقال بعضهم: لخمسةٍ من شهر مايو عام ١٤٦٩ وكانت أسرته تنتمي لحزب جولف، وهو حزب أتباع البابا، ويرجع تاريخ مؤسسها إلى القرن التاسع، ولأمرٍ ما هاجرت تلك الأسرة في منتصف القرن الثالث عشر حوالي ١٢٦٠ ونحسب لتلك الهجرة ارتباطًا بانهزام مونتابرتي، ثم عادت إلى مدينة فيرنزه «فلورنسا» بعد ذلك، وكان لها نصيب من المناصب العامة، ونال عدد من أفرادها تكريم الشعب والحكومة، وقد أنتجت تلك الدوحة خلال ثلاثمائة سنة ثلاثة عشر قاضيًا «جونفالونير» وخمسين مصليًا «برير» أو رئيسًا، وكانت فئة الجونفالونير والبرير هي فئة زعماء الحكومة ورءوس القضاء.

وكان برنارد ماكيافيلي والد نيقولا مشترعًا وأمينًا على أموال أنقونة، وكانت أمه بارتولمية فرع دائحة عريقة في المجد والقدم، من أكرم وأسمى بيوتات سادة فيرنزه، ولكنَّ شرف مَحْتِدِ والدَيْ نيقولا كان أعظم من توفيقهما، إنما الفقر لم يُعِقْ هذين النبيلين عن تهذيب نجلهما، فأنبتاه نباتًا حسنًا، ودرَّبته أمه في صباه على قرض الشِّعر.

بَيْدَ أنَّ أخبار صِبَا نيقولا غير متوفرة لدينا، ولا نعلم عنه أكثر من التحاقه بديوان مارسيل فيرجيل أستاذ الآداب اللاتينية والإغريقية، وكاتم أسرار جمهورية فيرنزه، وذلك حوالي العام الخامس والعشرين من عمره، ثم وصل بعد ذلك بأربع سنين إلى منصب كاتب أسرار ديوان القضاة العشرة، وبقي فيها أربعة عشر عامًا وخمسة أشهر، قام في أثنائها بثلاث وعشرين مأمورية في الأقطار الخارجية عدا مأموريات كثيرة أخرى داخل البلاد.

وكان عهد اشتغاله بشئون حكومة وطنه عهدًا ذا عظائم، فكانت ألمانيا وفرنسا والبابا يتنازعون السلطة في إيطاليا، ويعتركون على مدنها وولاياتها، ويخطفون خطف

اللصوص الطامعين أراضيها، تارة مخاتلة وتارة بقوة السيف والنار، وكان البابا في خطر دائم من دعاة الإصلاح أمثال القسيس المرسل جيورولومو سافونا رولا الذي كان يطالب بتقويم اعوجاج الكنيسة، وتغيير نظامها، وإحلال الديمقراطية محل الأرستقراطية.

وكانت أسرة مديتشي الطريدة تعمل تحت طي الخفاء لتقضي على نفوذ حزب الشعب الذي زعزع عرشها لتعود إلى التربع على أريكة السنيورية، ولم يكن يخطر لأحد في تلك الأيام فكرة توحيد إيطاليا ما دام حزب الجولف أتباع البابا، والجبلين أتباع الإمبراطور يعمل كل لشد أزر السلطة التي ينتمي إليها، لولا أن هذا الغرض السامي مر بخاطر أحد أكابر العالم، وهو نيقولا ماكيافيلي.

وكانت حوادث التاريخ الإيطالي تسير الواحدة تلو الأخرى بسرعة الصواعق، فشعرت نفسه الدقيقة الإحساس بتلك الرجفة التي تصيب النفوس الكبيرة لدى الحوادث العظام، ولكن منصبه لم يكن يؤدي به إلى تسيير الأمور حسب رغبته؛ لأنه في منصبه من أهل الصف الثاني بين ذوي السلطة، وإن كان بفكره وإصابة رأيه وبعد نظره وحبه لوطنه في الصف الأول من عظمائه.

على أن ماكيافيلي كان يجمع في ذاته شخصين مستقلين؛ الأول: شخص العالِم الكاتب المُشاهِد المختبِر. والثاني: شخص الرجل العادي. ظهر فضل صفته الأولى في أنه وضع علمًا جديدًا بحذافيره هو علم السياسة العملية، وقد ضمن هذا العلم روح عهد الإحياء، ويقصد بعهد الإحياء جيل النهضة العلمية في القرون الوسطى، ولكن ماكيافيلي بصفته العادية عاش عيش الرجل البسيط، جاهلًا قدر عبقريته، ولم يتناول يراعه ليكتب أول كتبه إلا في العام الرابع والأربعين من عمره، وسيرى القارئ لدى مطالعة هذا الكتاب العجيب أنه خلو من ادعاء المؤلفين، كأنه رسالة وضعها أحد فلاسفة العرب، وأهداها لأمير كريم ذي عطف ومودة، ولم يكن أقرب الناس وأشدهم حاجة إليه من معاصريه وهم السنيورية العشرة يعرفون فضله، فطالما أرسلوه في أمور الدولة وهو يكاد لا يملك قوت يومه، حتى إنه اضطر أكثر من مرة لأن يكتب إليهم كتب استعطاف مفعمة بجمل مخجِلة كقوله: إنه لا ينفق أكثر من أربع ليرات في كل يوم مع أن رفيقه في أسفاره فرنسوا ديلاكازا ينفق ثمانية، وإنه يضطر احتفاظًا بكرامة الجمهورية إلى مشابهته في النفقة، ويطلب أن تصرف له ما يُصرف لرفيقه مشاهرة، وإلا فالأفضل له والأجدر بشرف الجمهورية أن ترده إلى وطنه، وقد أخذ في مكتوب آخر يعدد ما أنفقه من دوكات، قال: إنه أنفق ثمانية عشر دوكًا على بغلته، وأحد عشر ثمنًا لقباء من المخمل، وعشرة ثمنًا لثوب واقٍ من المطر.

فوا أسفا على هذا العبقري الذي عاش مفلوكًا ومات معوزًا منسيًّا، وقضى حياته في خدمة الوطن، ودوَّن أعظم كتاب في فلسفة السياسة، ولم يجد من يعرف قدره!

وفي عام ١٥٠٤ تزوج ماكيافيلي من إحدى بنات فيرنزه، وهي السنيوريتا مارية بنت لويس كورسيني، وقد كذب من ادعى عليه أن رغبته في مال زوجته هي التي دفعته إلا الاقتران بها؛ فلم يكن صداقها الذي حملته إليه شيئًا مذكورًا.

وكان ماكيافيلي في السنين الأولى التي تلت زواجه مشتغلًا بدرس التاريخ ونظم الشعر، وبتنظيم الهيئات السياسية والحربية لخدمة جمهورية فيرنزه، وهي وطنه العزيز، وفي عام ١٥٠٥ خطر بباله أن يستبدل بجيش الكونديتوري المأجورين جيشًا وطنيًّا، فلما طرح مشروعه أمام ديوان العشرة نال رضاهم، فوكلوا إليه أن يقوم بحشد جيش وطني، ولكنه لقي في تنفيذ مشروعه عقبات توشك أن لا يمكن التغلب عليها؛ وهذا لأن ماكيافيلي كان يدعو الناس باسم حب الوطن، وهذه عاطفة لم تكن موجودة في عصره إلا في نفوس لفيف من الخاصة.

كانت الأحزاب السياسية تأكل بعضها بعضًا، وتجهل معنى الاتحاد، وتبغض من يدعو إليه، وهيهات أن تثمر الدعوة إلا الإصلاح في مثل هذه الجماعات، وأبعد من هذا تكوين جيش وطني؛ لأن الجيش الوطني ينشأ في الأمم الحية المتحدة، وما دامت الأمم منقسمة على ذاتها متفرقة الكلمة، فليست أممًا، ولا يمكن أن يؤلف منها جيش محارب.

وهكذا كانت حال كل داعٍ إلى الإصلاح في عهد الإحياء، كان يبدي الرأي الصائب فيقابله الخاصة بالرضا، ولكن يستحيل عليه التنفيذ؛ لأن النفوس مائتة، والهمم منحطة، والعزائم فاترة، وقوى الإنجاز والإنفاذ عاجزة قاصرة.

فعبثًا دوَّن ماكيافيلي كتابه في مشروع الجيش الوطني، وعبثًا أوجد القضاة العشرة مناصب تسعة قواد لتأسيس جيش فلورنسا.

شغلت ماكيافيلي بعثاته السياسية إلى بيزا وسينه وفرنسا ست سنين، من عام ١٥٠٦ إلى ١٥١١ ثم كلفته الحكومة الجمهورية بحشد بعض الجنود والتفتيش على الحصون والمعاقل، وكانت هذه الفترة من حياته هادئة عذبة، يلجأ إلى عيشة الخلاء كلما أصاب أيامًا من الفراغ، يواصلها بالدرس والمطالعة والإمعان في كتب الأدب، فلما حل عام ١٥١١ اعتلَّت صحته وجف ماء عُوده، فخشي عدو الناس المفاجئ؛ فبادر إلى تدوين وصيته في ٢٢ نوفمبر من تلك السنة.

أوصى لزوجته المحببة بصداقها كاملًا، وبأن يباع عقب وفاته كل ما يوجد في داره من الحلي والحلل، وأن تشرى بالثمن أسهم تدفع ريعها الحكومة، أو عقار ثابت، وأن تنتفع

أرمله دون سواها بالدخل ما دامت طاهرة الذيل بعيدة عن الريب، وأن يكون رأس المال لأولادهما، فإذا حدث أن أرمله تزوجت من غيره بعد موته أخرجت من الوصية وحُرمت دخلها.

ولم يكن ماكيافيلي كما رأيت غنيًّا، إذ تراه مضطرًّا لبيع حليه وحلله ليضمن رزق زوجته بعد وفاته؛ لأن ثروته كلها كانت محصورة في ما يتقاضاه في منصبه، وقد أراد الدهر حرمانه من منصبه أيضًا، فحدث في إيطاليا انقلاب سياسي أفقده أهم مصادر عيشه، وإليك البيان.

أسلفنا أن إيطاليا كانت متنازعة بين الدول؛ لأنها كانت خلال القرون الوسطى لقمة لكل آكل، وفريسة لكل كاسر، وكان فيمن انقضَّ عليها من وحوش أوروبا السالبة جيوش إسبانيا متحدة مع جيش البابا وجيش جمهورية البندقية، كلها تهاجم جمهورية فيرنزه لتعيد أسرة مديتشي إلى سلطانها بعد أن نفيت بسلطة الشعب من القصر العتيق.

وكانت هذه الجيوش المتحدة تأخذ في وجهها كل ما يقابلها، وتقضي على كل قوة تعترضها، فاكتسحت في طريقها دوقية ميلانو، وسارت تريد فيرنزه، فالتقت بجيش بعث به لويس الثاني عشر حليف فيرنزه ليرد عنها هجمات الجيش المتحد في رافنا، وحدثت بين الجيشين وقعة عظيمة هزم فيها الجيش الفرنسوي، ثم سار الجيش المتحد ثملًا بخمر النصرات المتوالية يقصد الفتك بمجد فيرنزه وحريتها انتقامًا منها لأسرة مديتشي الظالمة، وكان رئيس الجمهورية إذ ذاك البطل الشهير سوديريني، فلما علم بدنو جيش العدو من المدينة صمم على المقاومة، ووكل إلى ماكيافيلي كاتم أسرار مجلس العشرة أمر إعداد معدات الدفاع عن الوطن والتفتيش على الحصون الفلورنتية، فقام ماكيافيلي بتلك البعثة الشريفة خير قيام، وأن أهل فيرنزه ورجال حكومتها النبلاء كذلك يتأهبون للدفاع عن وطنهم وأعراضهم ومجدهم ومدنيتهم بعد أن أقسموا أن يبذلوا كل رخيص وغالٍ في سبيل خلاص جمهوريتهم، وأن يبهروا الأمم المجاورة بثباتهم في الذود عن حوضهم، وإذا بوفد من الجيش الإسباني مقبل، فإذا هم فئة من السفراء، فلما مثلوا بين يدي السنيورية في القصر العتيق «بلاتزوفكيو» قالوا إنهم لم يدنوا من أرض فيرنزه لعداوة أو بقصد الفتح أو السلب، وإنهم لا يقصدون الاعتداء على حرية الجمهورية، ولا أن يضعفوا من قوتها، إنما جاءوا ليتأكدوا مودتها وصداقة أهلها، وأن ينصحوا لهم بالتخلي عن الانتماء إلى فرنسا وأن يلجئوا إلى حزب الجيوش المتحدة.

ولما كان سوديريني مشهورًا بحب فرنسا، فالأولى للجمهورية أن تقيله من منصبه؛ لأن الجيوش المتحدة لا تستطيع الوثوق بوعود فيرنزه ما دامت السلطة في يده، وأن لأهل

فيرنزه أن ينتخبوا دونه من يشاءون من الجونفالونيري، فأجاب سوديريني على هذه القِحَة الممزوجة بالخبث والوقيعة أنه تسلم زمام منصبه من الشعب، وأنه يأبى التنازل عنه ولو أن ملوك الأرض اجتمعت في صعيد واحد وطلبت إليه ذلك، ولكن إذا رغبت الأمة في تخليه فإنه ينفذ رغبتها عن طيب خاطر، فأشعل جلال هذا الرد الحكيم نار الحمية في أفئدة أهل فيرنزه، فوهبوا حياتهم في سبيل مناصرة هذا الرئيس الأبي.

وكان الجيش الإسباني قد تقدم إلى أن بلغ براتو، وهي قرية تبعد مسافة عشرة أميال عن فيرنزه (بها الآن مخازن البضائع) وبها باب وحصن، كباب النصر أو باب الوزير في قاهرة القرون الوسطى، فاستولى الجيش المهاجم على تلك البقعة، ورأى سوديريني أن المقاومة الحربية مستحيلة، فأراد أن يخابر الجيش المهاجم في أمر الاتفاق، وكان الأشراف الذين باتوا يقرعون سنهم منذ نفي أسرة مديتشي قد انتهزوا تلك الفرصة الخاسرة وتسلحوا واحتلوا تحت جنح الظلام سائر الأماكن المحصنة، فاضطر سوديريني البطل أن يترك المدينة، فاجتمع السنيورية بدون رئيسهم الجونفالونية سوديريني الذي لم يطق البقاء في الوطن بعد أن انتهك أعداءه وأبناءه حرمته، ودعوا أهل المدينة للاجتماع في ساحة السنيوريا، وسنوا قانونًا يعيد عهد المديتشي، ويرد إلى الأبناء والأحفاد ما كان للآباء والأجداد.

وكان هذا الانقلاب سببًا في سقوط نيقولا ماكيافيلي، فلما حلت سنيورية (مجلس الجمهورية) جديدة محل السنيورية القديمة، أصدرت ضده قرارين في نوفمبر عام ١٥١٢؛ الأول: يعلن الملأ بنزع منصبه من يديه. والثاني: يأمر بنفيه عامًا في حدود الجمهورية، وأنه إذا حاول الخروج عن الحدود إنما يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب. وتلا هذين القرارين قرار ثالث يحرمه من دخول القصر العتيق.

مسكين أنت يا ماكيافيلي! لك نصيب العظماء في فلاكتهم وشقائهم ومحنتهم، ولكن لم تنته نكبته عند هذا الحد، فقد استأذنت عليه سنة ١٥١٣ بشؤمها، قضى البابا جول الثاني (الذي اشتهر بحبه للمحاربة، وله صورة فائقة من صنع العبقري رفائيل محفوظة بمتحف الأفيتشي بفيرنزه) في يناير من تلك السنة، فالتأم مجمع الكرادلة لينتخبوا مكانه خليفة للقديس بطرس، فأصاب حسن الطالع الكردينال حنا دي مديتشي الذي صار ليون العاشر، وله كلمة مشهورة قالها عندما هنأه أخوه قال: «لقد حبانا الرب بالبابوية فلنتمتع بها!» اخترق الكردينال حنا دي مديتشي أرض توسكانيا ليبلغ رومة مقر مجمع الكرادلة «كونكلاف» فاكتشفت مؤامرة كانت غايتها اغتياله، فاتهم ماكيافيلي فيمن اتهموا

في تدبيرها إن صدقًا وإن كذبًا، فسجنوه وعذبوه وقيدوه بالسلاسل، فلم يرَ ماكيافيلي في نفسه جلدًا على تلك النكبة الكبرى، فنظم قصيدة استعطاف وقدمها إلى جوليان دي مديتشي حاكم فيرنزه أودعها حزنه ووحشته، فلم يعرها الأمير التفاتًا، فعاد ماكيافيلي وأتبعها بقصيدة أخرى فرقَّ له فؤاد الأمير وأطلق سراحه، ففرح ماكيافيلي بحريته وحياته؛ لأن كثيرين من أقرانه في التهمة فقدوا حريتهم وحياتهم، وشرع ماكيافيلي يلتمس من سادته المُحْدَثين أمراء مديتشي منصبًا سياسيًّا كالمنصب الذي كان يشغله، ولجأ في توسله إلى أصدقائه الأقدمين وقليلًا ما أصبحوا، وهذا القليل خذله، وكان أقربهم إليه وأشدهم عطفًا عليه فيتوري الذي كان تارة يقيم برومة وطورًا بفيرنزه، كتب إليه ماكيافيلي في ١٥١٤: «أترضى أن أبقى في زوايا النسيان لا أجد رجلًا واحدًا يذكر أعمالي ويقدر نفعي! إنه يستحيل علي أن تطول عزلتي وانقطاعي عن العمل، إن قواي تفنى في ظلال الفراغ والفاقة، سأخرج يومًا في الطريق، وأرضى بخدمة أحقر التجار، أو ألجأ إلى قرية أُعلم فيها حروف الهجاء للصغار.»

انظر إلى تلك النفس القلقة التي لا تستقر على حال، والتي لا تروقها العزلة مع توفر وسائل الدرس والاستفادة والانقطاع للعلم؛ لأنها في حاجة إلى العمل، يُعْوِزُها أن تخوض عباب الحياة الحقيقية، حياة الجهاد المستمر والمتاعب المتتالية والعقبات المتواترة؛ لأن وجودها في اشتغالها المستمر وفناءها في خمودها.

انظر إلى تلك النفس، وقارن بينها وبين نفوس بعض حكماء الشرق، أسمعت بالغزالي يرفض رئاسة المدرسة النظامية ببغداد، ويتشح ثوب درويش مفلوك ليجوب بقاع الأرض في طلب العلم ونشره؟ أم أتاك حديث الفارابي فيلسوف الإسلام غير مُدافَع وهو يقول:

لما رأيت الزمان نكسا   وكل رأس به صداع
لزمت بيتًا وصنت عرضًا   به من العزة اقتناع

كأنه صدى صوت فيلسوف علا من قبل كعبه، وذاع صيته واشتهر فضله، وهو الكندي القائل:

وضائل سوادك واقبض يديك   وفي قعر بيتك فاستجلس
فإن الغنى في قلوب الرجال   وإن التعزز بالأنفس

هؤلاء الرجال لا تُعْوِزهم الحركة، ولا تلذ لهم جلبة الحياة العامة، إنما يطلبون الغرض الأسمى في الوحدة والانعكاف والانقطاع للدرس، هذه هي النفس الشرقية الجميلة الهادئة، القائلة: إن الأعمال بالنيات، وإن الإيمان ينقل الجبال من أماكنها، وتلك النفوس التي منها نفس ماكيافيلي إنما هي نفوس غذاءها الحركة وقوتها العمل الدائم، وهذا الذي دعا كبلنج إلى القول بأن الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقي التوأمان، ولكن الأمم لا تنجح بإحدى هاتين الصفتين، بل ينبغي أن تجمع النوعين: نوع النفوس الهادئة، والنفوس المتحركة، بل إن الفرد لا يفوز في معترك الحياة، ولا يترك في الأرض أثرًا خالدًا إذا لم يجمع تينك الحالتين: حالة السكون، والحركة، فيسعى إلى الغرض الأسمى بالوسيلتين معًا.

كان ماكيافيلي خلال تلك المدة يعيش في قصر صغير له خارج أسوار المدينة، وكان يبلغ خمسين عامًا، وكان نار قلبه لم تطفئها الكهولة ولا النكبة ولا الفراغ، بل كان يجد أوقاتًا يتفرغ فيها لعبادة الزهرة إلهة الحب في شخص فتاة يترقرق في وجهها ماء الشباب، ويشف ثوبها الدمقسي عن عود ليِّن ونهد بيِّن وخصر هيِّن، دع عنك جبينها الباهر، وطرفها الساحر، ووجهها المقسم، وريحها العاطر، وما كان كهل فيرنزه يخجل من مغازلتها وتدوين عواطفه في تلك السويعات الروحانية، وهذا الذي حير الناس في فهم خلق نيقولا المسكين، فظنوه مخلوقًا خرافيًّا وظنه البعض لغزًا أو سرًّا مبهمًا.

إنما رأينا فيه أنه لم يكن هذا ولا ذاك، بل كان إنسانًا كغيره من البشر، يجمع بين سمو مدارك العبقري وبساطة خلق الرجل الطيب، ولم يكن لعبقريته خَلْوًا من آثار الضعف الإنساني.

قدمنا أن ماكيافيلي كان يسكن قصرًا صغيرًا على طريق السابلة من فيرنزه إلى رومة قريبًا من سانتا كاسيانو، أطلق عليه اسم «لاسترادا» وقد وصف لنا بقلمه البليغ حياته في قصره في مكتوب إلى صديقه فيتوري جاء فيه قوله:

> من يحرم ذاته خشية غيره يضحى نفسه دون أن يشعر به أحد.

وكان ينهض مبكرًا قبل شروق الشمس فيسلي نفسه بصيد الطيور كما كان يفعل هوراس شاعر اللاتين الشهير، ثم ينقطع إلى أعمال الغرس وتشذيب الشجر، حتى إذا آن وقت الغدا تغدى بجانب فسقية ثم يواصل عمله إلى الغروب، فيعود إلى منزله ويغتسل ويلبس ثوبًا من الثياب القديمة التي كان يعدها للقاء الحكام ودخول القصر العتيق،

ويدخل بخشوع إلى قاعة فسيحة فيها خزانة كتبه، فإذا أغلق بابها شعر بأنه انقطع عن العالم الخارجي، وبدأ حياة جديدة بين نفوس العظماء والحكماء، وكأنهم يحيون قدومه ويرحبون به، فيحادث فطاحل القرون الخالية، ويجرع كئوس العلم العذبة، ويشرب مما اقتناه من الكتب النفيسة راحًا له من قواريرها ندامى ومن قراقيرها سماع، ويقضي معظم ليله في اجتناء حديث قوم قد أقفرت من أجسامهم الأرض، ولم تقفر من آثار نفوسهم البقاع.

ومنذ ذلك العهد أخذ ماكيافيلي يؤلف كتبه الشهيرة، فصنف كتاب الأمير الذي نخرجه اليوم للشرق بعد أن نقل إلى سائر لغات الغرب، وشرح تاريخ تيت ليف، وكتب رواياته الهزلية وكتبه السبعة في صنعة الحرب، وترجمة كاستروستو، ولم يكن يعلم أن تلك البطالة مكنته من بلوغ شأو العظماء بتأليف الكتب التي تركها، ولو أنه بقي في منصبه قضت أعباؤه على ذكائه وفطنته، فكم كان له وللعالم من الفوائد في نكبته.

على أنه لم ينشر له في حياته إلا كتاب واحد وهو رواية تمثيلية هزلية اسمها ماتدراجور، فأطربت الجمهور، وذاع صيتها، حتى إن البابا ليون العاشر طلب مشاهدتها فراقته، وكان هذا الرضى المقدس سببًا في العفو عن ماكيافيلي، فأجيب إلى طلبه لما عاد إلى إلحاحه في التماس الاشتغال بالسياسة من جديد.

فبعث في سنة ١٥٢١ بعثة سياسية لدى إخوة كاربي، وكانوا أمراء قاصرين، ثم وكل إليه أمر مراقبة حصون فيرنزه، ثم طلب إليه أن يحل مسائل معلقة بين الجمهورية وبين فرنسوا جوتيشارديني حاكم مقاطعة رومانيا «بإيطاليا» ثم خدم في الجيش المتحد الذي أصبح في عهد مديتشي محالفًا لفيرنزه ضد شارلكان صديق الجمهورية القديم، وكان هذا آخر مناصبه.

وقد رزق ماكيافيلي بخمسة أطفال بينهم بنت واحدة، وترك لهم ميراثًا مكونًا من دور أربع في الخلاء، وخامس في فيرنزه رقم ١٧ شارع جوتيشارديني وبعض الحقول والكروم.

وفي عام ١٥٢٧ لعودته من سفره إلى سيفيتافيتشيا شعر بتغيير فجائي في صحته، وكان اعتاد أن يعالج ذاته بحبوب يصنعها مركبة من عقاقير نافعة، ولكن يظهر أنه أخذ منها جرعة شديدة فأصابته في أحشائه آلام مبرحة، وقضى نحبه في ٢٢ يونيو سنة ١٥٢٧.

وأودعت رفاته قبرًا صغيرًا في كنيسة الصليب المقدس «سنتا كروشيا» وما زالت تجاليده مجهولة من أهل قومه إلى أن أقام له الدوق ليوبولد عام ١٧٨٧ قبرًا فخمًا، كتب عليه هذين السطرين المعجزين باللاتينية:

لا يبلغ أعلى المجد شأو ذلك الاسم:

نيقولا ماكيافيلي المتوفى عام ١٥٢٧

Tanto Nomini Nullum par Elogiun

NICOLUS MACHIAVELLI

Obiit anno A. P. V. MDXXVII.

بحث في تآليفه

أتينا في الصحف السابقة بالحوادث الخاصة بحياة نيقولا ماكيافيلي، وبقي علينا أن نبحث في أثره الحقيقي في قومه، وفي العالم فإن ماكيافيلي كان معدودًا في نظر من قرءوا كتبه موجدًا للسياسة الأوربية؛ لأنه رفع الستار عن أسرار صناعة الحكم الدقيقة والمحفوفة بالأخطار، ولأنه غذَّى بآرائه وحكمه نفوس جميع أبطال التاريخ الحديث.

والذي يدهش الباحث لأول وهلة في تاريخ هذا الرجل العجيب أن أهل وطنه لم يأبهوا له أثناء حياته، بل إنه لم يرد ذكره في ما كتب لعهده إلا مرتين؛ الأولى: في جملة تافهة وردت عرضًا في بعض ما دونه جويتشارديني مؤرخ إيطاليا الشهير، والمرة الثانية: في جدول المتهمين في مؤامرة البابا ليون العاشر، كأن أهل عصره لم يشعروا بالعبقري المعاصر الذي انتفع بحوادث التاريخ القديم والحديث وحل ألغاز السياسة، وصير صنعة الحكم الصعبة المراس عملية من عمليات الجبر البسيطة، كأن أهل عصره لم يفطنوا إلى أن ماكيافيلي كان أول من أدرك أسمى فكرة سياسية خدم بها وطنه، وهي فكرة توحيد إيطاليا وطرد البرابرة الذين اعتدوا عليها من الشمال، كما كان ينسب إلى البابوية كل الشرور التي أصابت إيطاليا، ولقد بلغ به حبه لوطنه وبغضه للبرابرة المتغلبين أنه طلب من وزير لويس الثاني عشر في عام ١٥٥٢، وهو إذ ذاك الكردينال دامبواز أن يسير بجيوشه لفتح إيطاليا وطرد البرابرة من ربوعها، ولكن كبار المؤرخين والعلماء الذين تفرغوا لدرس كتبه وآرائه ومبادئه وصفوه بأنه كبعض أشخاص أساطير الأولين، يعلمون علم الأمس والغد، ولكنهم عن علم اليوم عمي، كان ماكيافيلي يرى الماضي ويعتبر به ويتنبأ تنبوءًا صحيحًا بحوادث المستقبل، ولكنه كان لا يفقه معنى حوادث الحاضر، لأجل هذا يمكن الحكم عليه من كتبه لا من الوقوف على تفصيل ترجمته.

أَلَّف ماكيافيلي في التاريخ والسياسة والتمثيل ونظم شعرًا غنيًّا بالمعاني وطليًّا بالأسلوب، ودوَّن رسائل أدبية وقصصًا وضعية، وصنف في فنون الحرب، وحرَّر كتبًا سياسية وغير ذلك، وكان في كل نوع ممتازًا بالغًا الغاية القصوى من الإجادة والإتقان، ففي التاريخ يعد من أكابر مؤرخي إيطاليا، ولم يَفُقْهُ أحد في وصف الأماكن وذكر الحوادث وترتيبها بحيث يشعر القارئ أنه حاضر وقوعها، وحتى يخيل له أنه يقرأ صحفًا من يراع تاسيت أكبر مؤرخي العالم، ولكن ماكيافيلي مؤرخ بلا قلب، يرى الجرائم ويصفها وهو جامد لا يحرك عاطفة ولا يذرف دمعًا، ولا يبوح بآهة على الدماء المهدورة والرءوس الطائرة والنفوس الزاهقة والبلاد المهجورة والدول الفانية، بل تراه لشدة اعتقاده بنفوذ القضاء في الإنسان، كبعض مؤلفي اليونان، يعتقد أن سير الكواكب والأجرام العلوية هو الذي يحرك العالم الأرضي، ولكنه يرى بجانب تلك القوة الخفية قوة جديدة بل إلهًا حديثًا هو العقل.

أما عن رواياته الهزلية فقد قال فولتير إنه يشبه تارة أريستوفان وطورًا بوكاتشيو، وإذا سئلنا عن كتبه في فنون الحرب أجبنا بأنها دلت على اقتداره في أمرين؛ الأول: علمه بنظام الجيوش الرومانية، والثاني وقوفه على النظامات الحربية في القرن السادس عشر، أضف إلى ذلك حذقه وقوة انتقاده.

وقد نشرت بقية كتبه بعد وفاته ببضع سنين وبينها كتاب الأمير، وهو أكبرها قدرًا وأصغرها حجمًا، والغريب في أمر طبعها أنها طبعت في المطبعة البابوية متوجة بتصريح البابا كليمنت السابع، ووجه الغرابة في ذلك من أمرين؛ الأول: أن ماكيافيلي ذاته سخر من الأديان في بعض كتبه، وقال: إن وضع دين جديد أمر سهل ميسور، وإن تأسيس العقائد لا يحتاج إلى أكثر من الذكاء والدهاء، وجعل الأنبياء والمصلحين جميعًا في صف واحد بدون تمييز، وما أبعد تلك الأفكار عن أفكار الكنيسة الكاثوليكية في ذلك العهد السحيق! والأمر الثاني هو أن البابا بول الرابع حرَّم كتب ماكيافيلي بعد موته بنحو ثلاثين سنة ضاربًا صفحًا عن تصريح البابا كليمنت السابع، وكان الباباوات والأمراء وذوو السلطة يُظهرون سخطهم على كتب ماكيافيلي في الظاهر، ويتبعون نصائحه في أمورهم ودولهم في الباطن، فإن أسرة مديتشي التي دُوِّن الكتاب في ظلها وأهدي لأحد أفرادها، انتفعت بتعاليمه ومبادئه يوم ألقيت إلى الخاسرة كاترين دي مديتشي تقاليد الأمور في فرنسا، وهي عشيقة المصورين وخائنة وطنها ومدبرة مذبحة القديس برثلومية المنكرة.

ثم جاء دور الجزويت في لعن ماكيافيلي، فسفهوا كتبه وأحرقوا مثالًا صنع على صورته شفاء لغليلهم؛ لأنهم لم يتمكنوا من إحراقه حيًّا.

ثم جاء عهد البروتستنت، ففعلوا مثل أسلافهم الكاثوليك والجزويت، والذي يلفت نظر الناقد اللبق في هجوم رجال الدين على هذا المؤرخ السياسي، أن الجزويت كانوا يرشقونه بذات السهام التي كان يرشقهم بها باسكال المفكر الديني الشهير، فكأنهم رموه بدائهم وانسلوا، وكان بايل الكاتب الفرنسوي الشهير أول من استعمل لفظ ماكيافيلزم ونسب إليها ما صار مرادفًا لها بعد ذلك من منتصف القرن السادس عشر إلى يومنا هذا من صنوف الغدر والأثرة.

ثم جاء فولتير، عاتية العقل والدين، الهازئ بالعالم، الساخر من الملوك والملل، رهين فيرنيه، ومكون الفكر الأوروبي الحديث، وعدو روسو الألد، وقال: إن ماكيافيلي مشترع خالد، ثم قام فردريك الكبير صديق فولتير وتلميذه الذي نعجب بهمته وقدرته الحربية، ونبسم من ادعائه العلمي، وأراد أن يرد على كتاب ماكيافيلي فعجز واستعان بفولتير في نقده بعد ثناء هذا الأخير عليه، ولكن فولتير كان يعلم كيف يرضي الملوك دون أن يغضب الحق، فأعان فردريك الكبير في وضع كتيب سموه «عدو ماكيافيلي» فلم يكن لهذا الكتاب أثر أو قيمة، بل قرأه نقاد القرن الثامن عشر وعلى شفاههم ابتسامة الازدراء، وقالوا في نفوسهم: إن قصور الملك عن الفهم أدى به إلى النقد.

ولم يبقَ بين المفكرين من لم يُبدِ رأيه في ماكيافيلي سوى روسو، فلما جاء دوره دوَّن عنه نبذة عجيبة في كتاب العقد الاجتماعي، قال:

> إن مصلحة الأمراء الذاتية كامنة في ضعف الشعب وشقوته ليبقى أبدًا عاجزًا عن المقاومة، وهم يفضلون ما يعود عليهم بالنفع مباشرة، وإن صنع ماكيافيلي يشبه صنع صموئيل لبني إسرائيل، فقد استفاد الملوك من كتابه وكانت فائدة الشعوب أكبر، لقد كان ماكيافيلي رجلًا شريفًا أمينًا حرًّا، ولكنه كان يعيش في كنف أسرة مديتشي، فاضطر أن يكتب بحيث تخفى مقاصده على غير الفطن، والفهم شيمة الحاذق.

وأشبه روسو في رأيه العلامة باكون الوزير الفيلسوف الإنجليزي؛ إذ يقول: «إن ماكيافيلي لا يفيد أحدًا من الملوك؛ لأنهم يعرفون ما يقصدون، ولكنه يفيد الشعوب ويفتح عينيها لما يحيق بها من الأخطار.»

وأنت ترى اختلاف الآراء، وتباين الأحكام في ماكيافيلي وكتابه، ونحن نعتقد أن أصحاب الآراء الطاغية فيه إنما هم فريق من لم يتفهموه ولم يمعنوا النظر في معانيه الدقيقة، أما أصحاء النظر وسليمو الذوق والفطرة يرون فيه ما يراه المعجبون به.

وها نحن نختم هذه النبذة برأي العلامة المعاصر لويجي ريسي أحد شراح ماكيافيلي في كتاب الأمير ومؤلفه، قال لويجي ريسي أحد شراح كتاب الأمير:

> إن كتاب الأمير هو أعظم مؤلفات ماكيافيلي، وله لدى أهل الفضل كافة مكانة لم ينلها سواه من تصانيف صاحبه، وعدا ذلك فإنه معدود بين الأسفار الخالدة في لغته الأصلية، فلا عجب إذا عُدَّ في غيرها كذلك، ويتعذر علينا أن نلم بمحاسن هذا الكتاب وفضل واضعه، وقد يجد الراغب فيما كتبه ماكولي، النقادة الإنكليزي الشهير عن ماكيافيلي أكبر مؤرخي إيطاليا وأحذق ساستها ما يشفي الغليل، إنما أردنا للقارئ أن يستوعب ما كتبه ماكولي ليعلم كيف أنه في نقده نسخ آراء المؤلف ومسخها وغيَّر فيها وبدَّل من معانيها، مع أنه كان يستفيد منها ويسترشد بها، غير أنه لم يرَ أن يكافأ صاحبها على فضله إلا بتوجيه سهام النقد إلى ما كتب والتشهير باسمه، فنفر الناس بذلك عن ماكيافيلي وكتابه بعد أن اتهمه بأنه سن أقسى وأفظع النظامات ووصمه بابتداع أظلم خطة للتحكم في الأعناق.
>
> ومن العجيب أن يتهم ماكيافيلي بذلك وهو الذي قضى أيام شبابه وكهولته في خدمة أهل وطنه والسعي في تأسيس بناء العدل ليعيشوا في ظله، وقد جلب عليه تطرفه فقدان منصبه في جمهورية فلورنسا، فهل يعدل في حكمه من يتهم مثل هذا الرجل بمساعدة أهل البغي والطغيان في مفاسدهم؟
>
> إنما كتب ماكيافيلي ما كتب ليدل الناس على مواطن الغدر ليفطنوا إلى صنوف الخداع فيما يدبر ضدهم وما يدس لهم من الدسائس، ولو أن الناس قدَّروا قوله حق قدره وأعاروا آراءه أفئدة واعية ما تمكن أحد من إيذائهم، فمن الغبن — والأمر ما ذكرت — أن يعود اللائمون باللائمة على ماكيافيلي؛ لأن كلامه ذهب صرخة في واد، ونفخة في رماد، والعاقل لا يرى عتبًا على قائل إذا ذهب قوله في الرياح.
>
> ولعلَّ من لا يزالون يبغضون ماكيافيلي مقلدين في ذلك ألد أعدائه وأشد خصومه يرجعون إلى رسائله ومكاتيبه الخاصة التي لا تزال محفوظة بخطه

في خزائن الكتب العامة بفلورنسا وروما ليتثبتوا صدق ما دوَّنت من الحقائق.
ا.هـ.

وقد آن للقارئ أن يبدأ في مطالعة الكتاب بذاته ليستطيع الحكم عليه حكمًا مستقلًّا شخصيًّا، وخشية أن تصعب معرفة الأشخاص والأماكن التي ورد ذكرها في الكتاب لكثرتها، فقد رتبنا لها في آخره فهرستًا على حروف المعجم مع تبيينها بيانًا وجيزًا كافيًا، وقدمنا على الكتاب فصلًا عن تقديرنا فضله منذ وقفنا على كتابه وقصة خيالية عن وفاته، وفيها وصف حياته، وكانت كتابتها بفيرنزه عقيب زيارة منزله.

تذكار ماكيافيلي

أول عهدي بنيقولا ماكيافيلي وآثاره النادرة المثال أنني كنت أحادث رجلًا يشغل منصبًا سياسيًّا دوليًّا بمصر، فقال لي: إن منح الخير للأمم ينبغي أن يكون رذاذًا لا انهمالًا، فيكون التقدير أكبر والعرفان بالجميل أكثر، وهذا رأي ماكيافيلي، فقلت له بعد مناقشته: ومن هو ماكيافيلي؟ أجاب: إنه كاتم أسرار جمهورية فيرنزه في أوائل القرن السادس عشر، وإنه مؤلف كتاب الأمير البرنشبة «بالإيطالية» ولم يزد على ذلك.

ولكنه كان في محادثات أخرى يذكر حكمًا ونبذًا تدهشني بإيجازها وإعجازها، وينسبها إلى كاتم أسرار جمهورية فيرنزه، وكان ذلك منذ سبع سنين؛ أي في آخريات ليالي ١٩٠٥، فسألته يومًا عن كتاب الأمير الذي ذكره، فقال: إنه قرأه بالإيطالية، ولا يدري إن كانت له ترجمة إنكليزية، ولكنه يعرف أنه منقول إلى الفرنسية والألمانية، ففتشت المكاتب الأجنبية بالعاصمة، باحثًا ومنقبًا سائلا وملحًّا عن كتاب ماكيافيلي، فلم أجد له أصلًا ولا تعريبًا، وكان شوقي إلى استطلاع أفكار هذا الاسم الساحر الذي يجذب النفس بمجرد سماعه، ولكنني لا أهتدي، فلجأت إلى صاحبي أسأله في الأمر فقال لي: إن الكتاب مضنون به، وأنه لا بدَّ أن يقع لي في الوقت المناسب، فلم يشفِ هذا الجواب غليلي، فالتمست الوقوف على بعض المعلوم عن ماكيافيلي في بطون الموسوعات ودوائر المعارف، وكل ما قرأته عنه فيها كان يزيد شوقي إلى كتابه لإجماع المؤرخين على تمجيد كتاب الأمير والثناء على واضعه، وإن هذا السفر على إيجازه كان مصدر العلم السياسي الحديث، حتى إن أبطال التاريخ الحديث أمثال ريشليو فردريك الكبير، ونابليون بونابرت، ومترنيخ كانوا يستقون من نبعه.

على أن المؤرخين أجمعوا أو كادوا على أن الاسم ماكيافيلي أصبح علمًا على كل سياسي شديد قوي العقل والقلب، لا يقف به الشرف أو العفة أو هيبة الله دون اقتراف أفظع

الآثام لبلوغ الغاية لا سيما إذا كان الأمير يسعى بذلك في مصلحة الحكومة التي يدير دفتها، وقد أصبح لفظ ماكيافيلزم وصفًا لكل عمل قائم على الخبث والدهاء المقرونين بالأثرة وتقديم الغاية على حسن الواسطة.

وقد قضيت أشهرًا ذا شغف بماكيافيلي وكتابه، ألتمسه في كل مكان، وأسأل عنه كل إنسان، إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان، كنت أسير في يوم من أيام ربيع ١٩٠٦ فلمحت رجلًا ناشرًا كتبًا حقيرة على إفريز أسوار حديقة الأزبكية، فنظرت فيها، فإذا هي خليط من القصص اليونانية والإيطالية والفرنسوية، ولم أكن أعرف لسانًا منها، ولكن لشد ما كان فرحي ودهشتي وانتصاري عندما وقعت عيني على كلمة Il Principe على كتيب زري الهيأة مطبوع على ورق دون الوسط، ثم وقع نظري في أعلا الصحيفة على اسم نيقولا ماكيافيلي، فلم يعد لدي شك في أنني أمام أمنيتي، فخطفت الكتاب خطفًا، وسألت البائع عن الثمن فقال: قرشًا صاغًا. ولست أدري كم دفعت، وأخذت الكتاب بين يدي وسرت لا ألوي على شيء، بيد أنني لم أسر ميلًا محمولًا على كاهل الحمية والتحمس، حتى أدركت خطئي، وأنني حصلت على ما لا أستطيع إدراكه؛ لأن الكتاب بالإيطالية، فخطر ببالي لساعتي ألف مشروع للخروج من تلك الورطة، كأن أستعين بإيطالي على تَفَهُّمِ عبارته، وكأن أبدأ في تعلم اللغة الإيطالية لبلوغ مأربي منه، ولكن حيرتي لم يطل أمدها إذ هداني الحظ الحسن إلى نسخة إنجليزية في إحدى مكاتب الإسكندرية فقرأت الكتاب في أقرب وقت يمكن فيه إنجازه، ولكن القراءة الأولى تركتني في حيرة لصعوبة إدراك معاني الكتاب ومغزاه، واضطررت لإعادة الكرة المرة بعد المرة، واكتفيت في نهاية الأمر باستيعابه وإدراك فحواه، فكنت بعد قراءة كل فصل كمن يظفر باستطلاع سر غرفة مخيفة في قصر مسحور، وكنت أقف بعد قراءة كل جملة وقفة الدهش والحيرة، بل كنت في بعض الأحيان أقلب عيني في سطوره بذعر ورهبة، وأسائل نفسي: أصدقًا يقول هذا الرجل العجيب؟! فأرجع ببصري إلى الصحف فألقى أعلامًا معلومة، وأسماء مشهورة وحوادث معروفة، وأماكن معينة، عرفت الأشخاص من قبل بالاسم، وزرت بعض الأماكن التي يتكلم عنها، ولكن كتاب الأمير مثَّل لي هؤلاء الأبطال في ميدان الحياة الإنسانية وهم عبارة عن إرادات قوية شتى، اندفعت في ميدان الحياة بقوى مختلفة، وكل إرادة تسعى إلى غرض خاص بها، وهي تارة مسيَّرة بقوة خفية، وطورًا مخيرة في طريق الجهاد الذي تختط خطته لذاتها، وهي فيما بين الحالين ترتفع وتنخفض، تعلو وتسقط، تسعد وتشقى، ترجو وتيأس، كأن الرجال الذين ورد ذكرهم في كتاب الأمير

نوع آخر من البشر، مجموعة منافع ومصالح خاصة وعامة قام بينها نزاع أزلي أبدي على السلطة والنفوذ والمجد، فتجردت من العواطف الضعيفة الحقيرة، ونظرت إلى الأمور نظر العاقل المستفيد الذي يقدِّر الأشياء قدرها تبعًا لقيمتها المادية العملية.

وبينما ترى تلك الرءوس الكبيرة تدبر الأمور بغير قلوب رحيمة ترى أممًا وممالك ومدنًا هي ميادين تلك الأعمال الكبيرة، تعز حينًا وتذل آخر، فكأنك في معرض عجيب، أقامته آمال الرجال في ميدان الحياة الفانية؛ لأنك وأنت تقتفي أثر بطل مقدام يكون ملكًا أو يدبر دولة وهو آمن مطمئن، يشيد مجده كأنه يعيش أبدًا، إذا بحادث غير منتظر يأتي كالسيل الجارف فيكسح في طريقه ذلك البطل، ويهدم صروح آماله بل يهدم ما شاده من الحصون الحقيقية، ويفني ما حشده من الجنود المحاربة، فإن لم يكن ذلك الحادث المهول، فالموت هو المهلك المفني، فيا لك يا ماكيافيلي من مراقب ذكي الفؤاد! ترقب عن بعد وعن قرب بعين جامدة، وقلب جاف، ونفس نضب بها منبع الدموع لعبة الشطرنج الأبدية التي رقعتها الليالي والأيام، وقطعها أبطال التاريخ القديم والحديث، وبيادقها جيوش ألمانيا وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وقلاعها قلاع رومة وحصون بيزة وفيرنزه، وفيلتها أساطيل جنوة والبندقية، وشاهها قيصر بورجيا!

لما قرأت كتاب الأمير شغفت به، وكنت أحمله بجانب رباعيات الخيام، أقرأ الخيام لدى حزن النفس وانقباض الصدر لأثمل بخمره المقدسة المطهرة، وأقرأ الأمير لأفيق من خمرة الخيال؛ ولأعود إلى ميدان الحقائق المؤلمة التي تصطدم فيه جيوش القوى والرغائب، وتشتبك به سيوف الحوادث ورماح الكوارث.

ثم رحلت لأول مرة إلى الأقطار الشمالية أتنسم ريح الغرض الأسمى في هياكل الرومان، وألتمس آية الجمال في التماثيل العجيبة والتصاوير المطربة، وإنني في عصر يوم أطوف في قاعات متحف الفنون القديمة والحديثة برومة، وإذا بي وجهًا لوجه بصورة رجل جالس أمام منضدة مغطاة بسجادة مزركشة، وعليها كتب وأوراق مبعثرة، وهو ناظر إليَّ بعينين ملؤهما الذكاء والمكر والحزن، وحينئذ حدثت حادثة من حوادث المصادفات العجيبة، فقلت ماكيافيلي وأرباب رومة، وأسرعت إلى برنامج المتحف ونظرت إلى رقم الصورة فإذا به هو نيقولا ماكيافيلي، وكانت هذه أول مرة يقع فيها نظري على صورته، فوقفت أمامها باهتًا متسائلًا كأني أحاول كسر تلك الجمجمة لأرى ما تحويه من أفكار واضحة وآمال مبهمة، ثم ذكرت أن هذا الوجه ليس إلا صورة منقوشة بالزيت، وتركت المتحف ولكن بقيت سحنة ماكيافيلي في ذهني.

كل هذا ولم تحدثني نفسي بنقل كتاب الأمير إلى العربية، إلى أن كان ربيع ١٩١٠، إذ ألقت بي الأسفار في مدينة تارار من أعمال فرنسا، دعيت ولفيف من الأساتذة الفرنسويين على رأسهم العلامة إدوار لامبير لحضور احتفال علمي، وإلقاء محاضرة عن مصر، وكانت اللجنة العلمية التي أعدت هذا الاحتفال مؤلفة من رئيس، وكاتم أسرار، وأمين صندوق، وأعضاء، أُعلِمت من كان كاتم أسرارها — ولا يزال كذلك إلى يومنا هذا — أنه حفيد حفيد ماكيافيلي، وهو لا يزال إلى الآن يحمل اسم أسرته، فلما سمعت اسمه طرت إليه، وحاولت كتم عواطفي وأخذت أسأله بلطف عن أعماله وأحواله وعن غرابة اسمه، فقال لي: إن اسمي إيطاليًّا، ولا شك أنك يا سيدي تعرف اسم نيقولا ماكيافيلي الشهير؟ قلت: قرأت عنه في بعض الكتب. قال: إنه جدي. فقلت في نفسي: يا لك من شقي! بل يا لأسرتك من أسرة سيئة الحظ إذ أحفاد مديتشي وسفورزا وفيسكونتي وجوريتشارديني يمرحون اليوم في نعيم الثروة الطائلة وأنت حفيد أعظم سياسي في العالم تعاني مشاقَّ التعليم ولا تزال كجدك كاتم أسرار لجنة! وقد كان كاتم أسرار دولة، ولم يكن أحسن منك حالًا، وقد صافحت الموسيو ماكيافيلي الفرنسوي لدى سفري، وأبقيت كفه في يدي أمدًا، فانطلق لسانه بشكري، ولكنه لم يكن يدري أنني أحيي فيه جده العبقري، وأمد يدي على جماجم سبعة أجيال خالية مصافحًا نيقولا العظيم.

وفي تلك السنة بعينها أخذت بأهداب الإيطالية لميل فطري إلى اللغات اللاتينية، وتلقيتها عن الأستاذ منيون أستاذ الآداب الإيطالية بكلية الآداب بمدرسة ليون الجامعة، وقرأت عليه «آداب النديم» «الكورتجيانو» لكاستليوني نثرًا قديمًا، وتحرير أورشليم «جوراسليمو ليباراتا» من نظم تاصو، ثم مختارات من باسكولي أستاذ الآداب بمدرسة بولونيا الجامعة سابقًا، وخليفة كاردوتشي، ومن محاسن الاتفاق أنني اهتديت إذ ذاك إلى الآنسة مريم ألبرتيني من أهل بولونيا، فتلقيت عنها قواعد الآجرومية الإيطالية، وكنت أزهد فيها لنفور طبعي من القواعد والقيود، فلما حل الصيف شددت رحلي إلى إيطاليا، فقضيت بجنوة وربالو ونرفي وبيلي، وكلها على الشاطئ الغربي ما قضيت، ثم سافرت إلى فيرنزه مدينة الذكاء والجمال، وأقمت بها أشهرًا، واختلطت بفريق من أدبائها، وهم الذين يملئون صحف «المارزوكو» بما تجود به قرائحهم الفنية، وزرت الآثار، ومتعت نفسي بمحاسن ذلك الفردوس الأرضي، وليس هذا مجال الإسهاب في هذا الغرض، إنما أذكر أنني تنبهت إلى نقل كتاب الأمير من الإيطالية إلى العربية في فيرنزه ذاتها، حيث كنت أقيم بشارع ليوناردو دي فنشي رقم ٦، وإذ ذاك زرت كنيسة الصليب المقدس

سانتا كروتشيا، حيث يوجد قبر ماكيافيلي، ولست قادرًا على وصف العواطف التي جالت بنفسي عند تلك الوقفة، وكان تأثري أشد يوم زيارتي دار ماكيافيلي، وهي الآن رقم ١٧ شارع جويتشارديني، وجاء وصفها في «الليلة الأخيرة» وكان ذلك في أواخر شهر أغسطس، وكان جيران ماكيافيلي يلتفون حولي عندما كنت أنقل العبارات المكتوبة على قطع المرمر المعلقة على الجدار، لتدل أهل هذا الزمان على أن هذا المنزل الحقير كان مأوى صاحب أقوى عقل سياسي إيطالي.

وقد أنجزت بعض ما بقي من كتاب الأمير في جنيف، فكأنه طاف معي سائر الأقطار منذ ست سنين تقريبًا، تارة كتابًا مقروءًا، وطورًا ترجمة مقطعة، تم معظمها بفيرنزه وطن ماكيافيلي، وبعضها بجنيف، وبعضها بليون، وبعضها بباريس، وبعضها بالقاهرة، وكان ختامها في ٢٧ يونيو سنة ١٩١١ بجنيف المحروسة رقم ٧٩ بولفار كارل فوجت في الجانب الغربي من المدينة.

واليوم أُخرج للورى هذا الكتاب الذي كان حليف وحدتي في أسفاري، وصديق وحشتي في حِلِّي وترحالي، وإني أفارقه بحزن تخالطه الغيرة؛ لأنه كان منذ الأمس ملكي، وسيصبح غدًا ملك الألوف المؤلفة ممن يقرءون العربية الشريفة.

الليلة الأخيرة

أهدي هذه القصة إلى صديقي الحبيب أوجست فيلبوف الذي عاشرني بفيرنزه، وصحبني في زيارة بيت ماكيافيلي، وشهدني أكتبها، وأعانني بمحاسن خلقه وشمائله. (أكتوبر ١٩١٠).

الساعة الثانية بعد نصف الليل في فيرنزه، ساحة السنيوريا ساكنة، حولها القصور الفخمة المشادة بصخور ضخمة بارزة، وبينها القصر القديم «بالاتزو فكيو» وهو مقر السلطة البلدية، رفعت دعائمه حكومة الجمهورية، وخلفته أثرًا من آثار القرون الوسطى، مربع مهول من الحجر الأصفر، مملوءة جدرانه بالنوافذ، وبطرفه برج عظيم ذو طبقات متعددة كأنه منارة مسجد قديم، بناء جليل، وحصن منيع يرهب العدو القاصي، ويصد هجمة الخصم الداني، كأنه لشدة ما يبعث في قلب الرائي من الرهبة والإعجاب درع كبير من الصخر تقلدته تلك المدينة الجميلة لتأمن به كيد أعدائها، لا يراه الرائي دون أن يستعرض أمام ذهنه صورًا من تاريخ القرون الوسطى، فقد سالت في تلك الساحة وفي الطريق المجاورة لها دماء أشراف فلورنسا خلال ثلاثين عامًا، اثنتان وأربعون أسرة يقودها بنو نوندلمنتي حيال اثنتين وعشرين أخرى يقودها آل أوبرتي، فكانوا يحصنون المنازل، ويحاصرون القصور، ويقطعون الطرق، ويسدون السبل، وكلما تغلب فريق على إحدى الأسر المعادية أهلك أفرادها عن آخرهم، وهدم قصرها ليمحو أثرها، كل ذلك في سبيل الحرية وانتصارًا للحق الذي يدعيه كل فريق لنفسه، وصونًا للشرف الذي لا يسلم حتى يراق على جوانبه الدم.

بأعلى البرج ساعة كبرى كأنها وجه الزمان، لا تبدو عليها علامة الحركة، ولكنها تطوي الأيام والليالي، تدق كلما مضت ساعة دقًّا بطيئًا رهيبًا كأنه صوت الدهر ينذر بني الإنسان بلسان من فولاذ.

وكانت الساحة مضاءة بأضواء ضئيلة، وبأعلى البرج مصابيح تخفق شعلتها كلما هب الريح كأنها عين حارس لا ينام، وكانت معظم المنازل المحيطة بالساحة لا نور بها كأنها لجلالها وسكونها قبور، وكان بأعلى البرج حارس يرقب أبواب المدينة، ويصيح كلما مضى هزيع من الليل: «الأبواب آمنة والمدينة في سلام.»

بعد أن صاح الحارس صيحته الأخيرة دنا من الساحة شبح، كان قادمًا من شارع شيماتوري، يسير تارة مبطئًا وأخرى مسرعًا، فلما سار في الساحة أخذ سمته إلى لوجيا دلوركانيا، وهي الردهة الجميلة المزدانة بتماثيل المرمر والبرنز إزاء القصر العتيق، فدنا هذا الشبح من السلم الموصل إلى الردهة، وجلس على أعلى درجاته محاطًا من جانبيه بأسدين من المرمر قابضين على كرتين من المرمر أيضًا رمزًا للسلطة والبطش.

فلما جلس الشبح على أعلى درجات السلم سقطت على وجهه أشعة ضئيلة من ضوء المصابيح المحيطة، فإذا به رجل في نحو الخمسين من عمره، نحيل ليس بوجهه أثر للشعر كأنه من رجال الدين، وعلى رأسه قلنسوة من الصوف مطرزة بخيوط من الحرير، وعلى بدنه ثياب عتيقة مكونة من سراويل ضيقة، ومعطف من الحرير، وقباء كبير من الصوف المسجف بالمخمل، وبأكمامه وعلى موضع العنق قطع من الفرو السنجابي، وعلى سائر ثيابه أثر القِدم، ولكنها كذلك تحمل أثر عز ونعمة.

أما وجه الجالس ورأسه فهما محط النظر، الجبين عريض عالٍ، بين أعلاه وأسفله خط عميق علامة الذكاء والفطنة، والصدغان منطبقان على الجبين، يكاد يشرق فيهما كوكبان من نور الحكمة، وبأعلى العينين والحاجبين غضون كأن كلًّا منهما سطر يقرأ فيه الناظر إلى هذا الوجه العجيب آثار الآلام والأحزان التي قاساها صاحبه، والحاجبان الدقيقان المستقيمان كخطين منتظمين يستران عينين وقَّادتين رغم الكهولة، والناظر إلى العينين يرى في إنسانيهما من الحدة والمكر والدهاء ما لا يرى إلا في عيون الملوك والوزراء والمشتغلين بتدبير أمور الأمم، عينان تكادان تريان كل شيء، وتخترقان حجب النفس، وتقرآن فكر من تبصران به لأول وهلة، وتستشفان بأشعتهما ما لا يبين للناظر البسيط، والأنف طويل يكاد يكون أقنى، والفم دقيق، والشفتان كأنهما لرقتهما شفتا فتاة لا رجل عرك الدهر وسبر غور الرجال، والذقن صغيرة مستديرة يقرأ رائيها ثبات

العزم وبُعد الهمة في استدارتها، ومجموع الوجه يدل على ألم شديد يئن من ثقله كاهل هذا الإنسان العجيب الذي اتخذ من صخر السلم مجلسًا محاطًا في سكون الليل بتماثيل اللوجيا دلوركانيا.

رفع الجالس بنظره إلى البرج العظيم وتنهد، ثم أخذ يحادث نفسه في سواد الليل: إيه لكِ أيتها الجمهورية، فقد قتلت نفسي في خدمتك، وقضيت أحسن أيام صباي في التغرب لأجلك، واقتحمت الملوك والأمراء لأبلغ رسائلك، وأجهدت نفسي في استنباط نظام حربيٍّ يحمي ذمارك ويذود عن حوضك، وها أنا ذا أقاسي الآلام بعيدًا عنك ومغضوبًا عليَّ من رجال سهَّلتُ لهم سبيل العمل، ووضعتُهم بجهادي حيث هم الآن، إن الفراغ يقتلني والسكون ينخر عظامي، ولولا ... وإنه كذلك وإذا بيد نبهته فالتفت وراءه، فإذا بوجه يعرفه يحييه بابتسامة حلوة وقال له: عم صباحًا يا كاتم أسرار الجمهورية، لا شك أن حبك لهؤلاء السادة عظيم، فإنك تأتي في دجى الليل ترقبهم عن بعد.

فقال الجالس: كلا يا صديقي إنما أنا الآن مقيم في الخلاء، ولا أجيء إلى المدينة إلا نادرًا، وقد كنت الليلة في مجلس حافل بالأدباء وأهل الفضل، وطال الحديث بنا إلى هذه الساعة، وأنا كما ترى على طريقي إلى منزلي، ولكنني تعبت من طول المسير فالتمست الراحة هنا.

قال له صديقه: وكيف تسكن في الخلاء، وهل تركت مسكنك في المدينة؟

قال الجالس: كلا، إنني أسكن بيتًا ورثته عن أبي.

سأله: وكيف تقضي يومك في الفراغ، وقد اعتدت منذ صباك حياة العمل؟

قال الجالس: إنني أستيقظ فجرًا، وأرمي شباكي لصيد الطيور، ثم أقصد الغابة لقطع الشجر، وأقضي هناك ساعتين، ثم أقصد مكانًا به عين ماء، ومعي شعر دانتي أو شعر بترارك فأقضي بقية اليوم في المطالعة، وعند المساء أعود إلى منزلي لأقضي نصف ليلتي بالدرس، وعند باب الغرفة أتخلى عن ثياب العمل التي اتَّشَحْتُها طول يومي ثم ألبس ثيابًا أرقَّ منها، وأدخل إلى المكان المقدس الذي أشعر فيه بسعادة الحياة العقلية، حيث أجد حكماء القرون الماضية وشعراءها فأغذي نفسي بالطعام الذي خلقت له وخلق لها، ولا أخشى حينذاك من محادثة العظماء وسؤالهم عن أعمالهم فيجاوبونني بكرم ولطف، وأبقى بينهم أربع ساعات أنسى خلالها أحزاني وآلامي، فلا أعود أخشى الفقر ولا الموت؛ لأنني أصير منهم، وهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم نهضا ووقفا في ساحة السنيوريا، وكان القمر في الربع الأخير، يبدو في الشرق كالعرجون القديم، فنظر إليه ماكيافيلي بحزن وقال: ما أشبه حياة الإنسان بحياة هذا

الجرم العجيب! ثم بدت في عينه نظرة الحزن الشديد، وأشار بيده نحو الساحة قائلًا: لقد أعددت الجيوش ورتبت الجنود، وابتدعت نظام الحرب لحماية الوطن، وألفت الكتب في سياسة المُلك، وطفت ممالك الأرض رسولًا بين حكوماتها وحكومتي، ولم أعد من هذا كله بغير قبائي وقلنسوتي، ثم نظر إلى صاحبه الذي كان ينظر إليه دهشًا ولا يجرؤ على مقاطعته، وقال له: أستودعك الله يا صاحبي، إنني ذاهب إلى منزلي.

فقاله له صاحبه: دعني أصحبك. وكان قد رأى في وجه نيقولا من علامات الضعف ما كان يخشى عاقبته، فظهر في عينه بريق عجيب وانتفض وقال: كلا. أشكرك يا صاحبي، إني أفضل أن أسير في مثل تلك الليالي بمفردي، فإنه يحلو لي التأمل في الوحدة عند سكون الليل، وأحب سماع وقع أقدامي على أرض فيرنزه العزيزة، وسأخترق عمائر الأفيتشي ثم أسير ونهر الأرنو فأعبر الجسر القديم، وأواصل طريقي حتى منزلي.

فلما رأى صاحبه رغبته في الانفراد ودَّعه، وسار ماكيافيلي بمفرده ببطء مطرقًا رأسه كأنه يعد خطواته ويتسمع وقع أقدامه، فتبعه صاحبه بنظره حتى غاب شبحه في ظلام عمائر الدواوين، وكان ماكيافيلي كلما بلغ تمثالًا من التماثيل الفخمة المزدانة بها تلك العمائر، ألقى عليها نظرة حزن ونطق باسم صاحبه، وكان كثير من أماكن التماثيل لا يزال خاليًا، فلم يخطر بباله وهو في تلك الثياب التي بها آثار النعمة الزائلة أن تمثاله سيزين يومًا ما أحد تلك الأماكن.

فلما خرج إلى ضفة النهر نظر ذات اليمين وذات اليسار، فإذا الليل هادئ، وتكاد المدينة تكون كأنها مساكن الموتى، إنما في السماء بريق بعض الكواكب وقِطَع من الغمام سوداء، وفي الشرق أشعة زرقاء تؤذن بانقضاء الليل، والنهر القديم يجري كأنه ثعبان أخضر ينساب بين تلك الصخور، فدنا ماكيافيلي من إفريز النهر، وأطَلَّ على الماء، وبقي يتأمل بضع دقائق، ثم أسرع خطاه كمن فطن إلى حاجة أهملها، ثم سار تحت الأعمدة التي عليها قصر أفيتشي، ولها في الظلام هيئة الحصون تردد صدى وقع أقدامه، فلما بلغ البنتوفكيو «الجسر القديم» تجلت له قباب فيرنزه وأبراجها، وأخذ يطل من جديد على النهر وهو يكاد يشرب حسن المدينة بعينه، يبطئ في السير تارة ويسرع أخرى، وكأنه يلتذ بكل خطوة يخطوها، ويود لو يعودها كمن شعر بأن هذي آخر مرة تطوى فيها أقدامه طرق فيرنزه الجميلة، فلما بلغ منتهى الجسر من الناحية الأخرى سار في طريق يُعرف الآن بشارع جويتشارديني، وهو طريق أسود ضيق، تَحُفُّ به من الجانبين بيوتٌ بعضها كالأبراج علوًّا، وبعضها يسكنه أوساط الناس، وكأن الساكنين يعيرون المنازل

هيئاتهم، فبعض المنازل في جدرانه نضارة وبعضها حقير، وما زال سائرًا حتى بلغ بيتًا على اليمين مرتفعًا ضيق النوافذ ذا ثلاث طبقات، مسودة حيطانه من انهمال الأمطار وهبوب الرياح، فأخرج ماكيافيلي من جيبه مفتاحًا وفتح بابه وولج في الظلام.

الغرفة صغيرة ذات نافذة على الشارع، في ركن منها سرير من الخشب، وفي وسطها مائدة عليها كتب وأوراق شتى، وبإحدى جدرانها دولاب به زجاجات وعلباوات مختلفة الألوان والأصناف، وعلى المائدة مصباح، فلما دخل ماكيافيلي غرفته ألقى بقلنسوته على المائدة، وجلس على مقعد حيالها، وأخذ يفكر في الظلام هنيهة، ثم خطر بباله أنه اكتشف نظامًا حربيًّا جديدًا، فأضاء المصباح وتناول أوراقًا وقلمًا، وأخذ يدون أفكاره، فكتب سطرًا واحدًا، ثم شعر بألم شديد في ذراعه الأيسر، فارتجف ونهض قائمًا، وأخذ يسير في الغرفة كأنه أسد سجين في قفص، ويهز بذراعه تارة، ويفركه تارة أخرى لعل الألم يزول، ثم خارت قواه فأعياه الضعف من مواصلة السير في الغرفة فألقى بنفسه على السرير، وأخذ يتنفس بألم وضيق، وما زال كذلك في غيبوبة نحو نصف ساعة ثم خطر بباله أن لديه علاجًا كان يتناوله، وهو حبوب اكتشف تركيبها في أحد كتب الطب، فاستجمع قواه ونهض وسار بضعف يستند إلى الحوائط وإلى الأثاث حتى بلغ مكان العقاقير، فتناول حبة، وعاد إلى المقعد فلم يخف ألمه، فعاد وتناول حبتين وإذ ذاك أخذ قلبه يخفق بسرعة وقواه تخور، فعاد إلى السرير وحل أزرَّة صدريته واستلقى، ثم شعر بعرَق بارد على جبينه، فحاول النهوض من جديد فلم يستطع، فصرخ من أعماق قلبه: «اكتشفت نظامًا جديدًا لحماية الوطن!» ثم اضطرب وألقى برأسه ولم تبد منه حركة.

هكذا قضى ماكيافيلي الليلة الأخيرة من حياته.

كتاب الأمير

إهداء الكتاب

إلى الأمير «لورنزو دي مديتشي» الكبير

قال ماكيافيلي في إهدائه:

تعود الذين يخطبون ودَّ الأمراء، ويسعون في التقرب منهم أن يبذلوا لهم أعز ما لديهم، أو يهدوا إليهم ما يحبه الأمراء خاصة ويميلون إليه بطبعهم، فترى المتزلفين يهدون المال والخيل وسبائك الذهب وعقود الجمان وعدد الحرب وغير ذلك مما يليق بأقدار الملوك السامية.

فلما أردت أن أتزلف إلى الأمير رأيت أن أقدم له هدية تليق بقدره، وتكون دليلًا على إخلاصي لعرشه، فلم أجد بين ما أملك شيئًا أعز على نفسي وأعظم قدرًا في عيني من أخبار كبار الرجال وأعمالهم، وما اكتسبته بطول الخبرة، واستيعاب حوادث التاريخ الماضي، وإمعان النظر في شئون الزمن الحاضر، فدونت كل ما علمت مما ذكرت في هذا الكتيب الذي أقدمه لسموكم، بَيْدَ أنني أعلم حقارة شأنه، وأعتقد أن هديتي لا تليق بمقامكم السامي، ولكن ثقتي بمكارم أخلاقكم، وبما ركز في فطرتكم الطاهرة من حب الضعفاء والحنو عليهم؛ جرأني على تقديم الهدية التي لم أجد لديَّ ما يفوقها قيمة وقدرًا، ولا يزيد عنها لسموكم نفعًا؛ لأن مطالعة هذا الكتيب بمثابة الإلمام في ساعة بما حصلته أنا في سنين طويلة، رأيت فيها الأهوال، وقاسيت أثناءها أنواع الشدائد.

ولم أُدخل في كتيبي جملًا مزوقة ولا ألفاظًا ضخمة كالتي يُدخلها الكتاب ليزينوا ما ألفوه بصفها، ويحسنوا ما صنفوه برصفها؛ لأنني لا أتطلب على عملي ثناء أو مدحًا، وكل ما أريده هو أن يقدر موضوع الكتاب حق قدره، وهيهات أن أنجو من نقد الناقدين ولوم اللائمين، فسوف يقولون أنَّى لهذا الصعلوك من نقد سياسة الأمراء والملوك! فأقول لهؤلاء: إن جمال الشمس لا يستجليه غير ساكن البسيطة، ونور الثريا يتمتع به من كان على الثرى، والمصور الحاذق لا يستطيع أن ينقل صور قُنَنِ الجبال ورءوسها إلا إذا كان في سفوحها، وكذلك لا يتبين جمال الوديان من لا يتسنم هامة الجبل، فلا لوم علي إذن، ومثلي كمثل المصور في الوادي، يرمق قمة الجبل ليصورها، ولا أرى لومًا على من يريد من الأمراء أن يعرف شعبه حق المعرفة، فيتنزل إلى جميع الطبقات ليسبر غورها، ولا أرى لومًا ولا تثريبًا علي إذا ارتقيت إلى مصافِّ الملوك والأمراء لأعرف طبائعهم ولأعمل جهدي في معاونتهم على سياسة الأمم وحكم الشعوب.

وها أنا أقدم كتيبي بنية سليمة، وعزم صادق وقصد حسن، فهل لسمو الأمير أن يتقبله كذلك؟ ولو أن الأمير تنازل فأمعن النظر في مؤلفي رأى أنه يسهل عليه نيل أرفع مقام وأسمى مكانة.

ثم ارجع البصر يا سمو الأمير تَرَ في الحضيض رجلًا تستدعي حاله الشفقة لما ناله من العذاب عدوانًا من الزمان وظلمًا من أهله، وهو واضع هذا الكتاب.[١]

الخاضع لدى أعتابك
نيقولا ماكيافيلي

[١] ليت ماكيافيلي راجع نفسه قبل تدوين هذين السطرين، فإن ما فيهما من الاستعطاف ذهب بقيمة ما تقدمهما من إصابة الرأي وجلال الحكمة، وقد قضت علينا أمانة التعريب بنقلهما.

الفصل الأول

في أنواع السلطة وطرق الحصول عليها

كانت الحكومات التي حكمت الأمم في الأزمان الغابرة إحدى اثنتين: إما جمهوريات عادلة وإما ملكيات معتدلة، وللملكية نوعان: نوع تحكمه أسرة واحدة عريقة في القدم، يرث أفرادها الملك الواحد بعد الآخر، ونوع حديث التأسيس وملوكه حديثو العهد بالسلطان، ولذلك النوع الأخير صنفان: صنف تكون الممالك فيه حديثة بالكلية كما كانت إمارة «ميلانو» في عهد «فرنسيسكو سفورزا» وصنف يضمه الأمير إلى ما ورثه عن آبائه وأجداده بحق الفتح، مثل إمارة «نابولي» التي ضمها ملك «إسبانيا» إلى أملاكه.

على أن بعض الممالك التي تُقهر، ويُغلب أهلها على أمرهم يكون قبل الفتح متعوِّدًا حكم أمير من الأمراء، ويكون بعضها حرًّا مستقلًّا، ووقوع تلك الإمارات في أيدي الفاتح يحدث إما بقوة الحرب وإما عفوًا صفوًا.

الفصل الثاني

في الكلام على الإمارات الموروثة

سأقصر كلامي في هذا الفصل على الحكومات الملكية،[1] وسأشرح الطرق والوسائل التي يتمكن بها الأمراء والملوك من التغلب على الأمم والتحكم فيها، فأقول: إن التمكن من الممالك الموروثة لا يحتاج إلى حيلة من حيل السياسة لتَعوُّد شعوبها حكم الأسر المالكة، ولأن الأمير الذي يرث عرش آبائه لا يحتاج عند ارتقائه العرش إلا إلى اقتفاء آثار من سبقه من الأمراء، ثم يكون أبدًا على أهبة الاستعداد لطوارئ الزمان، وبتينك الوسيلتين وحدهما يستطيع أي أمير مهما كان ضعيفًا في السياسة أن يصون ملكه إذا لم يحدث حادث خارق للعادة لم يكن في حسبانه، كأن تتغلب عليه قوة عظيمة وتحرمه عرشه، على أن ذلك الأمير لو كان على ما ذكرت من الاستعداد يمكنه أن يسترد عرشه الضائع لو انتهز فرصة خمود أعدائه ردحًا من الزمن، ومثل هذه الفرصة لمن يرقبها ويود انتهازها كثير السنوح.

ويشهد على صدق هذه النظرية تاريخ «دوق فرَّارا»[2] الذي قاوم أهل «البندقية» في سنة ١٤٨٤، ثم قاوم «البابا يوليوس الثاني» في سنة ١٥١٠، ولم يشدد أزره في المرتين إلا قِدم أُسرته وعراقة مجد أجداده، وسبب ذلك واضح، فإن الأمير الشرعي ليس في حاجة إلى إيصال الأذى برعيته، وإحجامه عن الأذى يحببه إلى شعبه فيتعلق بأهداب عرشه، هذا إذا لم يكن الأمير متصفًا بعيوب وذنوب تنفِّر منه الرعية، ولا يبعد أن تنسى الرعية في عهد الأمير المحبوب ما فرط من بعض أسلافه، كتغيير القوانين وتبديلها،

[1] لأنه أسهب في الكلام على الجمهوريات في شرحه على تاريخ تيت ليف.

[2] هو الفونس دست.

وسلب الأموال، والحكم بين الناس بالظلم، ومثل هذه الذنوب إذا طال عليها الزمن محاها، والدهر خير مضمد للجروح، والأمير الحازم إن أراد أن يبقى محبوبًا لدى أمته يحتاج إلى المحافظة على القديم والابتعاد عن التبديل مهما كان تافهًا؛ لأن الشعب يعلم أن التغيير القليل يمهد السبيل للكثير، وهذا يُهيِّج سخط العامة ويُحْفِظ الخاصة.

الفصل الثالث

في الإمارات المختلطة

شرحت في الفصل السابق سهولة التحكم في الممالك القديمة، وسأشرح في هذا الفصل صعوبة التحكم في الممالك الحديثة، وسأضرب لذلك مثل الولايات التي كانت في أول أمرها جزءًا من سلطنة كبرى، فإن أمثال هذه الولايات إذا شعرت بظلم حكامها ودَّت انصرافهم عنها، ولو أدى ذلك إلى تحكم غيرهم فيها، فإذا تولى عليها ملك غير ملكها رحبت به أملًا بأن الخلف يصلح ما أفسده السلف، فيعدل حيث ظلم، ويحسن حيث ساء، وكثيرًا ما تدفع تلك الأمنية بعض الولايات إلى سل السيوف في وجه ملكها القديم، فيثور أهلها ثورة حاسمة قد يتمكن بها الطامعون من الاستيلاء على الولاية الثائرة، وكثيرًا ما تكون أمثال تلك الثورات نتيجة لخديعة دبرها الطامعون، وقد دلت الحوادث أنها لا تصلح حال الولايات؛ لأنها لا تشفي الغلة ولا تبرئ العلة، إنما تكون ثالثة الأثافي فتزيد الطين بلة.

ثم إن فساد الأحوال في عهد الملك المغتصَب نتيجة طبيعية لمقدمات كثيرة: منها أن المغتصِب لا يستطيع أن يوثق رابطة الوئام بين أهل الولايات المغتصَبة وبين رجال جيشه وحكومته، وكذلك لا يستطيع أن ينقذها من الأخطار والمصائب التي تجلبها طبيعة الاغتصاب.

وغني عن البيان أن موقف المغتصِب يبقى في البلاد حرجًا مهما كان عادلًا في أحكامه وقويًّا بجنده وعدده؛ لأن أهل الولاية المغتصَبة يبقون على عدائه ما دام في بلادهم، وكذلك لا يتمكن المغتصِب من اكتساب إخلاص جماعة الخائنين الذين مكنوه من بلادهم؛ لأنه لا يستطيع أن يرضيهم أو يقنعهم مهما منحهم وأعطاهم، ولا يستطيع أن يعمد إلى الشدة في معاملتهم؛ لأنه مدين بما أولوه، ومهما تكن قدرته في المال والرجال فلا يمكن أن تستقيم له حال إذا لم يكن مع أهل البلاد على أتم ما يكون من

الصفاء والوداد، ولنضرب لك مثل «لويس الثاني عشر» الذي استطاع بجنوده وماله الاستيلاء على «ميلانو» ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بها طويلًا، لا لفشل أصاب جيوشه ولا لفقر انتاب خزائنه؛ بل لأن أهل «ميلانو» لم يلقوا من خير «لويس» ما سبق إلى ظنهم، ووجدوا من شره ما أبعد قلوبهم عنه، وبغضهم فيه؛ فاستسلموا من تلقاء أنفسهم للأمير «لدويج دي سفورزا» وأسلموا إليه قيادهم.

ومن المعلوم أن الفاتح إذا ثارت عليه الولاية المفتوحة ثم عاد فقهرها ثانية يكون الفتح الثاني ضامنًا لبقائه أبدًا؛ لأن الثورة علمته دروسًا ما كان ليعلمها بدونها، فيسلك بعد في سياسة الولاية المتهورة طريقين؛ الأولى: أن يمد يده بالعقاب لمن يسببون القلاقل ويخلقون المشاغب. والثانية: أن يعرف أماكن الضعف في حكومته فيقويها، فلا يجدها العدو الداخلي، كما كانت قبل عرضة لسهامه فيتمكن منها وفق مرامه، وتصدق تلك النظرية على تاريخ فتح «ميلانو» فقد كان مجرد ظهور أعلام الدوق «لدويج» على الحدود سببًا في ضياع ميلانو من يد فرنسا في المرة الأولى، أما في المرة الثانية فإنه لم تتمكن دولة من اغتصاب ميلانو من فرنسا قبل أن اتحدت دول أوروبا عليها، على أن هذا الاتحاد القوي لم يضعف من عزم فرنسا، فإنها دوخت الأمراء وألجأتهم إلى الفرار من إيطاليا بأسرها، فخلا لها الجو في ميلانو وغيرها، ولم يكن هذا الفوز المبين إلا أثرًا من آثار السياسة الثانية، سياسة تقوية أماكن الضعف في هيئة الحكومة، غير أن عهد فرنسا في «ميلانو» طال أو لم يطل فإنه لم يبقَ إلى الأبد، ولضياع ميلانو من يد فرنسا في المرة الثانية أسباب لا بد من ذكرها وشرحها كما ذكرنا أسباب خروجها من يدها في المرة الأولى، وسنستطرد إلى ذكر الأمور التي كان يجب على فرنسا فعلها لتحتفظ بميلانو وذكر ما كان يفعله ملك آخر لو كان مكانها.

غني عن البيان أن كل ولاية تفتح قد تكون متحدة والدولةَ الفاتحةَ في الجنس أو اللغة أو غيرهما من الروابط وقد لا تكون، فإن كانت الجنسية هي الرابطة فاستيلاء الدولة على الولاية سهل سيما إذا كان أهلها ميالين بطبعهم إلى تحرير أعناقهم، ويكفي لسيادة الدولة الفاتحة على الولاية المفتوحة انقراض الأسرة المالكة القديمة في تلك الولاية؛ وذلك لأن الحال تبقى على ما كانت عليه من قبل، فلا تتبدل الأخلاق ولا تتغير العادات، وبذلك يستأنس أهل الولاية بحكامهم المُحْدَثين، خذ لذلك مثل ولاية «برجانديا» و«بريتانيا» و«جاسكونيا» و«نورمانديا» وهي الولايات التي ضمتها فرنسا إلى حكمها منذ عهد بعيد، فاتفقت وعاشت جميعًا بسلام ووئام، ومن المعلوم أن أخلاق الجماعات

المتقدمة الذكر فرنسوية محضة، ولا فرق بينها وبين أهل فرنسا إلا في اللغة، فإن هناك بونًا طفيفًا في اللهجة، وقد سارت فرنسا في تملُّك تلك الولايات على الطريقتين السابقتين، فسعت أولًا في إهلاك الأسرة المالكة، وأبقت على القوانين القديمة والشرائع السالفة، ولم تزد الضرائب، فاستطاعت بذلك في زمن قصير جعل هذه الولايات كلها ولاية واحدة.

أما إذا كانت الولاية المقهورة تختلف عن الدولة القاهرة في اللغة والأخلاق والقوانين، فمصاعب التملك جمة وعقبات التحكم المطلق عظيمة؛ لأن القاهر يحتاج في مثل تلك الولاية إلى حظ وافر وعمل مستمر ليتمكن من الاحتفاظ بالولاية المقهورة، وخير وسائل الاحتفاظ بها أن ينتقل الفاتح إلى الولاية الحديثة ويعيش بين أهلها، وهذا يوطد قدمه ويثبت دعائم حكمه، ولنضرب للقارئ مثل الأتراك وبلاد اليونان فإن كل الوسائل التي استخدمها الترك لإبقاء بلاد الإغريق تحت سلطتهم لم تكن لتفيد لو لم يقطنوا البلاد ويعيشوا بين أهليها، ومنافع تلك السياسة كثيرة منها: أن الفاتح ببقائه في الولاية الحديثة يقف على أسباب الدسائس والفتن، فيسعى في تلافيها قبل أن يتسع الفتق على الراتق، ومنها أن عمَّال الفاتح على الولاية يرونه أبدًا نصب أعينهم فيتقون غضبه إذ هم حادوا عن الطريق المستقيم، بَيْدَ أَنَّهُ لو غاب عنهم وتركهم وشأنهم فهم لا ريب يُفسدون في الولاية فيؤثر إفسادهم في طاعة أهلها، وينفرهم من الفاتح وهو في حاجة إلى موالاتهم والتودد إليهم، ومنها أن الدول الأخرى لا تستطيع اكتساح ولاية مفتوحة ما دامت خشية بطش الفاتح منتشرة فيها، ويجدر بالفاتح أن يؤسس في مداخل الولاية المفتوحة ومخارجها مستعمرات أجنبية وإلا اضطر لاستخدام جيش أزبَّ داخل البلاد، وأشرت بتأسيس المستعمرات الأجنبية عالمًا أن هذا يقتضي نزع أملاك نفر قليل من أهل الولاية لتعطى للمستعمرين، ولا خوف من ذلك على الفاتح ما دام هذا النفر القليل المسلوب الحق ضعيفًا؛ فإنه لا يستطيع أن يمس الفاتح بأذى، ولا يستطيع كذلك هؤلاء الأقلون أن يثيروا غضب الأكثرين ممن لم تُغتصب أملاكهم لأن من لم يُغلب على أمره في متاعه لا يكون كمن غُلب، ولو أن المظلومين تمكنوا بعد اللُّتَيَّا والتي من تحريك غضب من لم يُظلموا، سهل على الفاتح تسكين ذلك الغضب، ولتلك السياسة نفع آخر وهو أن أكثر أهل الولاية يبقون في خوف مستمر، فهم أبدًا يخشون أن يُصنع بهم ما صُنع بغيرهم من قبل من الظلم والاغتصاب، فيخلدون إلى السكينة ويرضون بما يُمنحون.

أما نفع تلك المستعمرات فقد ذكرته، وهي عدا ذلك لا تكلف الفاتح شيئًا، ويكون أهلها أكثر إخلاصًا له بالطبع، ويكون الفاتح — كما تقدم — آمنًا شرَّ من اغتصب

أملاكهم لتأسيسها ما داموا مشتتين، وهنا أود أن ألفت نظر القارئ إلى قاعدة سياسية، وهي أنك إذا أردت أن تريح نفسك من رجل فاعمد إلى إحدى طريقين؛ الأولى: أن تملقه وتحسن إليه. والثانية: أن تخمد أنفاسه وتنتهي من أمره، وفي طبيعة البشر عادةٌ تساعد على تقرير تلك القاعدة، وهي أنهم يحاولون دائمًا أن ينتقموا من أعدائهم لما ينالهم من الأضرار التافهة، ولكنهم لا يقدرون على الانتقام لأنفسهم ممن ينالهم بأضرار كبيرة، فخير وسيلة لمن يريد إيصال الأذى الحقيقي بعدوه أن يصب عليه من جامِّ غيظه قدرًا يعجزه عن الانتقام، وقد فضلت تأسيس المستعمرات على تأسيس الحاميات، لأن ثكنات الجند في الحامية تستلزم نفقة طائلة يعجز عنها خراج الولاية، دع ما يولده بقاء الجند الفاتح في البلد المفتوح من أسباب الحقد والبغضاء بين الغالب والمغلوب، وأن الجاهل من لا يخشى العدو السالم الآمن في وكره.

وخلاصة القول أن المستعمرات كثيرة المنافع، والحاميات كثيرة الأضرار، وينبغي للفاتح الجديد أن ينصِّب نفسه زعيمًا على ما يجاوره من الولايات، وأن يضع نفسه موضع المدافع عنها، وأن يجعل نصب عينيه غرضين؛ الأول: إضعاف ما كان منها قويًّا. والثاني: سد باب ولايته في وجه الأجانب الأقوياء؛ لأن الولايات المغلوبة كثيرًا ما تستغيث بجيرانها، فيهرع إليها جار قوي إما طمعًا في الاستيلاء عليها، وإما خوفًا من امتداد نفوذ الفاتح إلى ولايته، ولنضرب لذلك مثل الرومان عندما دعاهم «الإيتوليون» إلى بلاد الإغريق، فكانوا كلما دنوا من ولاية واستنجد بهم أهلها لبوا دعوتهم واستعانوا بهم على حكامهم وامتلكوها.

وليعلم الفاتح القوي أنه إذا دخل ولاية جديدة فإن من كانوا ضعافًا من الأشراف والنبلاء قبل فتحه ينضمون إليه، ويمدون له يد المساعدة، لا لأنهم يودُّون خيانة وطنهم بل نكاية في الحاكم السابق الذي ضعف شأنهم في عهده، ولكن ليحذر الفاتح هؤلاء الأشراف؛ فإنهم إذا بلغوا من القوة أكثر مما ينبغي لهم استغنوا عنه وطغوا عليه ونازعوه الأمر إذا ما استتب له، أما إذا ساسهم بالحسنى، وتمكن من قلوبهم فإنه يستطيع بقوته وبما يمدونه به من إضعاف الحاكم الأصلي فيعقد له لواء النصر، وينال من الولاية المفتوحة فوق ما يشتهي، ولكن من لا يسير على درب تلك السياسة يفقد في برهة ما ربحه في عام، وإذا تم له حكم كان عهده مزعزعًا مقلقلًا، وقلَّ أن يطول.

كان الرومان يتبعون تلك السياسة، فكانوا إذا فتحوا ولاية جديدة أسسوا فيها مستعمراتهم، وملقوا أشرافها، وأحسنوا إليهم بدون أن يزيدوا في قوتهم، وكسروا جناح الأقوياء من الملوك والأمراء، وسدوا باب الولاية في وجوه الأجانب والدخلاء، وهاك تفصيل تلك السياسة في بلاد الإغريق: فإن الرومان لما افتتحوا تلك البلاد توددوا إلى إتشاي وإتيولي، وأهلكوا ملوك مقدونيا، وأبعدوا أنتيوكوس، ولم ينل فيلبس صداقتهم قبل أن أضعفوا نفوذه، وكذلك لم يسمحوا لأنتيوكوس بالعود إلى بلاد الإغريق، وما كان أحكم تلك السياسة، وكفى الرومان فخرًا أن سياستهم هي سياسة الحكماء من الملوك والعقلاء من الأمراء! إذ هي عدم اقتصارهم على الاهتمام بالحاضر وحده بل امتداد حسبانهم إلى غياهب المستقبل، فيعدون له عدده ليتقوا ما يمكن أن يكون؛ لأن الإنسان إذا حسب للمصائب حسابًا استطاع أن يفر منها، أما إذا صبر حتى تأتي، فربما لا يجديه ما يتخذ من الوسائل السريعة لدفعها، فيكون مثلها كمثل حُمَّى الدق التي يصعب على الأطباء اكتشافها في بداية أمرها، مع سهولة علاجها، ولكنها إذا تمكنت سهل اكتشافها واستحال علاجها، والأدواء المعنوية التي تشبه تلك الحُمَّى في تدبير الممالك كثيرة، ولا يستطيع أن يَحسب للمستقبل حسابه إلا الرجل الخبير الحازم، وكثيرًا ما اتقى رجل بفطنته وحصافته مصائب شعب برمته، أما إذا لم يكن على رأس السياسة رجل كما وصفت فلا يبعد أن تقع البلاد في هاوية.

وقد نشأت دولة الرومان ودرجت وشبت وهرمت وشاخت، وفيها رجال يحسبون للمستقبل ألف حساب، فكانوا أبدًا يتقون عواقب أمثال تلك الزلات السياسية، ولم يكن خوفهم من الحرب ليقف في وجه تلك السياسة الحكيمة؛ لأنهم عرفوا أن الحرب والسياسة توأمان، ومن يريد أن يفوز في الأولى لا بد أن يكون فوَّازًا في الثانية، وأن تأجيل الحرب ربما يفيد العدو فيستعد ويتأهب بما لا يوده الرومان؛ ولهذا السبب أشهروا الحرب على فيلبس وأنتيوكوس في بلاد الإغريق ليتقوا محاربتهما في إيطاليا، على أن ساسة الرومان كانوا يستطيعون بما اكتسبوه من الحكمة والخبرة أن يتقوا تلك الحرب، وأن يوكلوا للأيام ما أوكلوه للرمح والحسام، بيد أنهم رأوا أن الدهر قُلَّب، وأن اليوم لا يبوح بما يصنعه الغد.

ولنعد الآن إلى فرنسا لنرى هل سارت على درب الرومان؟ وهلَّا اقتدى ساستها وملوكها بساستهم وملوكهم؟ ولنضربن بالملك «لويس» مثلًا، فإنه هو الذي طال عهده في إيطاليا، وقد اخترناه؛ لأنه خالف تلك السياسة على خط مستقيم، وغنيٌّ عن البيان

أن أهل «البندقية» هم الذين استنجدوا بالملك لويس ليقاسموه ولاية «لومبارديا» على أنني لا أرى حقًّا للائميه على رعونته؛ لأنه كان يود أن يوطد قدم فرنسا في إيطاليا سيما بعد أن بغَّض سلفه أهل هذه المملكة في فرنسا، فلا تثريب على لويس إذا لبى نداء أهل البندقية ظنًّا منه أن فرنسا والبندقية تنتفعان إن اتفقتا، ولو أن لويس استمر على سياسة النفع والوفاق ولم يفسد على نفسه بما أتاه من الأغلاط السياسية لفاز في إيطاليا فوزًا باهرًا، على أن لويس لما تم له الأمر في لومبارديا استرد في زمن قصير ما خسرته فرنسا من شرفها وصيتها في عهد سلفه، فأتته «جنوة» مختارة، وصادقه أهل «فلورنسا»، وتقرب منه مركيز «مانتوا» ودوقات «فرارا» و«بنتفوجلي»، وصافاه أمراء «فاينزا» و«بيتزارو» و«ريميني» وتودد إليه أهل «لوقا» وسكان «بيزا» و«سينا»، فلما رأى أهل البندقية ذلك فطنوا إلى حقيقة الأمر وندموا وعادوا على أنفسهم باللائمة؛ لأن طمعهم في جزء من لومبارديا أدى إلى استيلاء ملك فرنسا على أكثر من ثلثي إيطاليا، وما كان أسهل التمكن من تلك الولايات كلها لو سار الملك لويس في سياستها على الخطة التي سار عليها الرومان، وشرحناها في أوائل هذا الفصل، فإنه كان بذلك يستطيع الأخذ بزمام تلك الإمارات لضعفها والتجائها إليه؛ ليحمي بعضها من أهل البندقية والبعض الآخر من الكنيسة، وكان من اليسير عليه أن يستعين بالضعيف منها على القوي حتى يستوي الكل في الضعف والاستكانة، ولكن لويس خبط في سياسته خبط عشواء واختطَّ لنفسه خطة عوجاء، فإنه لم يوشك أن يستتب له الأمر في ميلانو حتى مد يد المعونة إلى البابا «إسكندر» ليحتل ولاية «رومانيا» ومن العجيب أن لويس لم يتنبه إلى تلك الهفوة مع أنها زعزعت أركان قوته، وكادت تهدم جدران سياسته؛ هذا؛ لأنه بمعاونة البابا على إحدى الولايات أضعف نفسه بأن تخلى عن ولاية محالفة كانت لا تألوا جهدًا في مساعدته أنَّى شاء، وبذلك دب الشك في نفوس أهل الولايات الأخرى خشية أن يصنع بها ما صنع «برومانيا» وكذلك اشتد أزر الكنيسة فقويت شوكتها الدينية، وشوكة الدين إذا قويت اشتد بها ساعد الكنيسة، واعتز جانبها، وامتد نفوذها إلى السلطة الدنيوية.

ولما أن هفا لويس تلك الهفوة لم يرَ له بدًّا من البقاء على خطئه، والاستمرار على تلك السياسة الخرقاء، ولكن امتداد سلطة البابا إسكندر إلى «توسكانا» علمه أن جشعه لا يقف عند حد، وقد يوقع به فهرع إلى إيطاليا ولكن حذره لم يُجْدِه نفعًا؛ لأنه ما لبث أن خرج من تلك الغماء حتى أوقعه فساد الرأي في محنة أنكى وأشد، وتفصيل ذلك

أنه لم يكتف بما جلبته عليه سياسته الأولى من الضعف سيما بعد أن غدر بأصدقائه ومحالفيه، فنقضوا عهده وتخلوا عنه؛ مما أدى إلى نهوض الكنيسة من عثرتها، فصار لها من الحول والطَّول ما لا يحبه أعداؤها، بل أراد لويس أن ينال مملكة نابولي فاتحد مع ملك إسبانيا واقتسماها، فبعد أن كان في إيطاليا بأسرها سيدًا فذًّا أصبح في بعضها شريكًا محسودًا، وقد جنى بتلك السياسة الخرقاء على نفسه؛ لأن أهل الطمع من ولاية نابولي ممن كانوا ناقمين عليه في عهد انفراده بالملك وجدوا سواه بديلًا عنه، يعتمدون عليه إذا أعياهم الالتجاء إليه. ولم يكتف لويس بشريكه الضعيف الذي كان يستطيع إخضاعه بل أبعده عن الملك، واستبدل به ملكًا قويًّا، فتمكن هذا القوي من سلطة لويس فانتزعها من جذورها، وغرس مكانها بذور سلطته.

أقول: على أنني لا ألوم الملوك المتطلعين للاستيلاء على الولايات؛ لأن طبيعة التملك والسيادة راكزة في نفس كل أمير، بل أراني أميل للثناء على كل راغب في مد نفوذه إذا كان يُحسن التصرف، ولكن من يحاول امتلاك البلاد وهو جاهل بطرق السياسة، ثم يتفانى فيما توحيه إليه شهوة التملك، فهو جدير بأن يلام على تهوره لومًا عنيفًا، وقد كان الملك لويس من هذا الفريق الأخير؛ لأنه كان كثير الطمع قليل الخبرة، وكان الأجدر به لما أن رأى عجز فرنسا عن الاحتفاظ بولاية نابولي أن يتركها مرة واحدة لا أن يشرك فيها غيره، ومن يلتمس له عذرًا على إشراك البندقية معه في ولاية لومبارديا؛ لأن تلك الجمهورية هي التي دعته إلى إيطاليا وعضدته فيها لا يجد له عذرًا في إشراك غيرها فيما تم له الاستيلاء عليه من ولايات إيطاليا غير لومبارديا؛ لأن الرابطة التي كانت بينه وبين جمهورية البندقية لم يكن لها مثيل بينه وبين سواها.

ومجمل القول أن الملك لويس خلط الإصابة بالغلط في خمسة أمور؛ الأول: أنه أضعف قوى الولايات الصغرى. الثاني: أنه علَّم أمراء إيطاليا كيف يتفرد ملك واحد بالملك. الثالث: أنه جلب إلى البلاد أجنبيًّا عنها قويًّا عليها. الرابع: أنه لم يسكن إيطاليا ليتقي بقربه ما يخشى حدوثه على البعد. الخامس: أنه لم يؤسس مستعمرات فرنساوية في الولايات التي استولى عليها.

بَيْدَ أَنَّهُ كان في استطاعة الملك لويس أن يتقي ما نجم عن تلك السيئات السياسية لو أنه لم يقترف السادسة، وهي كبراها؛ فإنه — لا در دره — اغتصب السلطة من أيدي أهل البندقية وغلبهم على أمرهم بعد أن فرت فرصة مثل هذا العمل، ولم يكن هو في حاجة إليه، فكان عقابه ضياع نفوذه وخراب ملكه، ولو أن لويس اغتصب سلطة

أهل فينيسيا، ولم يعضد الكنيسة، ولم يُدخل إلى إيطاليا مَن أدخل من ملوك إسبانيا، لكان ذلك من الحكمة وحسن السياسة بمكان عظيم؛ لأنه كان يستطيع حينئذ أن يتفرد بالسلطة وأن يضمن لنفسه النفوذ الأكبر، أما وقد فعل تينك الفعلتين فكان الأجدر به أن يساعد جمهورية البندقية لتكون درعًا يحمي لومبارديا من عداء المعادين ومناصبة الفاتحين، سيما وقد كانت تلك النتيجة واضحة أمامه وضوح الشمس؛ لأن أهل البندقية لم يكونوا ليسمحوا لفاتح أن يمد يده إلى لومبارديا لما لهم فيها من المآرب، وكذلك لم يكن أحد ليحاول فتح تلك الولاية ليسلمها إلى البندقية طائعًا مختارًا ثم يذهب راشدًا مهديًّا، ولم يكن كذلك في ذلك العهد من يستطيع معاداة فرنسا والبندقية معًا ليحصل على ولاية تتفانى هاتان الدولتان في صونها، ولكن لويس لم يفطن إلى تلك السياسة ولذلك لم يعمل لأجلها.

أقول: وإذا التُمس للملك لويس عذر في منحه رومانيا «للإسكندر» وتنازله عن المُلك لإسبانيا؛ لأنه منح المنحتين اتقاء الحرب، أردُّ عليه بما قررته سابقًا، وهو أن السلطان العاجز هو الذي يهمل أمر ما يحدث في ملكه من القلاقل التي تورث الحرب ليتقيها؛ لأن الحرب لا تُتقى بالإهمال، إنما يمهله أعداؤه إلى أجل مسمى، وأن تلك المهلة لتؤذينَّه أكثر مما تنفعه.

وإذا التُمس العذر للملك لويس بما وعد به البابا إذا عاونه على تطليق زوجته، وأسند إلي القسيس «روهان» مسند الكردينال، أقول: ليس هذا عذرًا مقبولًا؛ لأن لي في عهود الملوك ووعودهم رأيًا سأبديه.

نقول: ولم يفقد الملك لويس ولاية لومبارديا إلا لأنه حاد عن الدرب الذي يسير عليه عقلاء المستعمرين، واقترف من السيئات السياسية ما خيب آماله وأفسد عليه أعماله، وليس في ذلك غرابة لأن لكل شيء في هذا الكون قانونًا، وجزاءُ الإهمال الخيبة والفشل، على أنني لما لقيت الكردينال روهان في «نانت» حادثته في هذا الشأن، وكان ابن البابا إسكندر يعمل في ذلك الحين لاحتلال رومانيا، فقال لي الكردينال في عرض كلامه: إن الإيطاليين لا يعرفون فن الحرب. فأجبته لساعتي: والفرنسويون لا يعرفون فن السياسة؛ لأنهم لو عرفوه ما استطاعت الكنيسة أن تنال في عهد ملكهم ما نالته من السلطة والقوة، وقد دلت الحوادث على أن فرنسا هي مانحة تلك القوة، وهي التي دعت إسبانيا إلى إيطاليا، فكانت كالباحث عن حتفه بظلفه، والحافر لَحْدَه بيده، وتنشأ عن ذلك نظرية — قلَّ أن تخطئ — وهي أن القوي الذي يعمل لتقوية الضعيف يسعى إلى

الموت بقدمه؛ لأن ما يكون في يده من القوة لا يخفى منشأه عن خصيصه، فيكون ذلك الخصيص أعلم بمضرته، وهيهات أن يرضى حديث العهد بالقوة بأن يعيش غيره قويًّا:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

الفصل الرابع

خضوع سلطنة «دارا» لخلفاء «الإسكندر»

بعد أن أفضت في ذكر الصعوبات التي تَعرِض للفاتح في أول عهده في بلاد حديثة الفتح، خطر لي سؤال يسأله كثيرون ممن يقيسون الحاضر على الماضي، ويعتبرون بحوادث الأمس، وهو: كيف تيسر للإسكندر أن يملك قارة آسيا بأسرها في برهة وجيزة من الزمن؟ وكيف تمكن خلفاؤه من الاحتفاظ بما تركه لهم فيها مع أنه ما أوشك أن يتم فتحها حتى قَضَى؟ وقد يسبق إلى الخاطر أن في موت الفاتح إشعال للثورة والعصيان، وإحياء للحزازات الكامنة، ولكن كانت حقيقة الحال غير ذلك، فإنه لم يعرض لوارثي البطل المقدوني ما يزعجهم سوى ما نشأ بينهم من أسباب الخلاف التي ولَّدها الطمع والأثرة.

أجيب على هذا السؤال بأن لحكم الممالك طريقين؛ الأولى: أن يحكم المملكة أمير له أعوان، هو ولي نعمتهم ومالك أعناقهم، والمتصرف في أمورهم، يأمرهم فيأتمرون، وينهاهم فينتهون. والثانية: أن يحكم المملكة أمير يقاسمه المُلك أشراف ونبلاء لا سلطة له عليهم، ولا يمتاز على واحد منهم، ويكون الفضل في امتيازهم على الخدم والأعوان راجعًا إلى مجد أجدادهم وما يجري في عروقهم من الدم الأزرق، ويكون لكلٍّ من هؤلاء الأشراف خدم ورعية خاصة به، وكلهم متعلقون بسيدهم ومعترفون له بالسيادة والإمارة؛ لأنهم لم يعرفوا سواه مَلكًا عليهم.

وغني عن البيان أن الأمير الذي لا شريك له في إمارته سوى خدمه يكون أعظم نفوذًا وأكبر شأنًا من شبيهه؛ لأن أفراد الشعب يرفعون بأبصارهم فلا يرون سوى أمير واحد، فيقصرون إخلاصهم عليه، ولا ينظرون إلى أعوانه إلا كما يرى المثيل المثيل، فيكون الكل عبيدًا وهو الآمر الناهي، ولهذين النوعين من الإمارة في عصرنا شبيهان؛ الأول: سلطان الأتراك. والثاني: ملك فرنسا. فإن دولة الأتراك بأسرها لا تعرف إلا أميرًا

فردًا، وكل من حوله من الحكام والوكلاء عُبَّاد إرادته وعبيد إشارته، وقد قسم ملكه إلى ولايات، فهو يبعث إلى كل ولاية من يشاء من الأعوان، ويتصرف في هؤلاء العمال تصرُّف القائد في الجند، فيعزل هذا، ويولي ذاك لا بخلًا ولا كرمًا.

أما ملك فرنسا فهو محاط بالأشراف والنبلاء ممن ترجع أنسابهم إلى أبطال القرون الأولى، ولهؤلاء الأشراف فِرَق وأحزاب تمجدهم وتقدسهم، ولهم حقوق خاصة بهم لا يستطيع الملك أن يسلبهم إياها، وإلا عرَّض نفسه لما لا يحب.

ومن ينظر في حال الإمارتين يرَ لأول وهلة أن فتح دولة كدولة الأتراك يكاد يكون مستحيلًا، ولكنها إذا فتحت استسلمت للفاتح في زمن قريب، أما صعوبة افتتاحها فلأنها خالية من الأمراء الناقمين على الملك، الذين يدْعون الفاتحين نكاية في المتفرد بالإمارة، وكذلك لا يستطيع الفاتح أن يبث روح الثورة في مثل تلك الدولة؛ لأن أعوان الملك وخدمه إذا أخلصوا له قَلَّ أن يقبلوا غيره سيدًا عليهم فلا يرتشون، وإذا تمكن دخيل من إفسادهم ذهب عناؤه هباء؛ لأنه ليس لهؤلاء الأعوان سلطان على الشعب كما تقدم؛ ولذا فالعاقل من اعتمد في قهر دولة كدولة الأتراك على عَدده وعُدده ليتمكن من مقاومة قوى عدوه، أما إذا عوَّل على فشل خصمه فعاقبه عقابه، وإذا كان النصر حليف الفاتح في دولة الأعوان فهزم جيوشها، واحتل بلادها، وشتت شمل جنودها فلا خوف عليه حينئذ إلا من أفراد الأسرة المالكة، فإذا هو أبقى عليهم كدَّروا من صفائه، وانتزعوا دولتهم من يده، واستبدلوا لواءهم بلوائه، أما إذا أهلكم عن آخرهم وأتبع رأس الأفعى ذَنَبَها، فلا خطر عليه من بقاء الأعوان؛ لأنهم — كما ذكرت — لا حول لهم ولا طول، وكما أنه لم يرج خيرهم قبل الفتح فلا خوف عليهم من شرهم بعده؛ لأن من لا يرجى خيره لا يخشى شره في معظم الأحوال.

وبعكس تلك الوسيلة يكون افتتاح مملكة كمملكة فرنسا؛ لأنه يكفي لامتلاكها أن يأمن الفاتح مكر شريف من أشرافها ونبلائها، والنبلاء الساخطون على ولي الأمر في الملك المتنازع كثيرون، بَيْدَ أَنَّ الفاتح إذا سهل له فتح مملكة من هذا القبيل صعب عليه أن يتمكن منها؛ لما يحدق به من الأخطار، فقد يخونه من الأشراف من أَمَّنه، ويناصبه العداوة من لم يعرفه، وليس بنافع سعيه في هلاك الأسرة المالكة؛ لأن الأشراف ينتهزون مثل تلك الفرصة للمطالبة بالملك، فيبقى الفاتح بين نارين، فلا هو بقادر أن يأتي عليهم ولا أن يرضيهم، فلا يطول عهده؛ لأن ملكه يبقى أبدًا عرضة للزوال كأنه مؤَسس في الريح أو على أمواج البحر التي لا تدوم على حال.

وإذا تأمل القارئ في دولة دارا قبل فتح الإسكندر رآها كدولة الترك لعهدنا، فلما تغلب الإسكندر على رأس تلك الدولة، ونكل بأسرته تنكيلًا وبيلًا؛ أتته السلطنة مختارة مستسلمة، ولو أن خلفاءه ساروا على دربه ونَحَوا نحوه كان نصيبهم منها نصيب سلفهم، لكنهم اختلفوا فيما بينهم، وظهر بعضهم على بعض فلم يستقم لهم أمر، ولو أن سلطنة دارا كانت لعهد الإسكندر كمملكة فرنسا لعهدنا ما استطاع أن ينال منها منالًا، فإنها كانت تكون أبعد نيلًا من قبة الفلك، وأعز على الفاتح من السِّماكين؛ لأجل هذا قاست رومة الأهوال الشداد في إسبانيا وفرنسا وبلاد الإغريق؛ لأن أشراف تلك الممالك كانوا عقبة كئودًا في سبيل رومة، فلم يستتب لها الأمر كما تحب حتى انقرضت أسر النبلاء، وذهب ذكرهم ذهاب أمس الغابر، وحينئذ هدأ روع رومة وخَلا لها الجو.

أما سبب هلاك هؤلاء الأمراء فهو انشقاقهم وانقسامهم، فكان كل أمير يناهض خصمه حتى إذا تغلب عليه تولى أمر ملكه، وكانت رومة تنتهز هذه الفرصة فتنفر حزب الأمير الهارب من الأمير الغالب فيلتجئ إليها الحزب، وقلَّ أن لا يعترف اللاجئ بالسيادة لمن يحميه، وما زالت كذلك حتى فني الأمراء عن آخرهم، فامتد نفوذها وانبسطت سلطتها، وبعد هذا لا يُستغرب ما وقع للإسكندر في آسيا من الفوز، وكذلك لا يلام غيره من الفاتحين أمثال «بيروس» ممن لم ينالوا من فتوحهم ما ناله الإسكندر، وما الفضل لواحد على الآخر، إنما اختلفت شئون الممالك فاختلفت نتائج الفتوحات.

الفصل الخامس

كيف تُحكم البلاد التي كانت قبل الفتح مستقلة؟

إذا افتتح فاتح بلادًا كانت قبل الفتح حرَّة سائرة على شرائع وسنن خاصة بها، فللتحكُّم فيها ثلاث طرق؛ الأولى: أن يخرب الفاتح البلاد المفتوحة، ثم يؤسس سلطنته على أنقاض السلطنة الغابرة. والثانية: أن يعيش الفاتح في البلاد المفتوحة. والثالثة: أن يمنح البلاد حريتها السياسية واستقلالها الداخلي شريطة أن يفرض عليها الجزية في كل عام، وهذا بعد أن يكون قد ترك في البلاد فئة تحافظ على سلطته في غيبته، ويكون عمل تلك الفئة النائبة أن تشرح لأهل البلاد المفتوحة حاجتهم إلى حماية الفاتح وتعضيده، وتُدخل عليهم أن ذلك لا يتم إلا بإخلاصهم له وتعلقهم به، وقد دل الاختبار على أن تلك الوسيلة مع منح الحرية للبلاد التي كانت قبل الفتح حرة هي أضمن الوسائل للاحتفاظ بها لتعوُّد أهلها الحرية.

ولنضرب لتلك الطرق الثلاث أمثالًا، فنقول: إن أهل «إسبرطة» استولوا على «أثينا» و«ثيبة» وملكوهما باللين، ومنح الحرية وتوثيق عرى المودة بين الغالب والمغلوب. وكذلك استولت «رومة» على «قرطاجنة» و«كابوا» و«نومانتبا» بعد أن أهلكتها جميعًا، ثم حاول الرومان الاستيلاء على بلاد الإغريق كما استولت عليها إسبرطة بأن يمنحوها الحرية ويصافوها، فلم يتوفر لهم النجاح فأهلكوا كثيرًا من مدن اليونان، على أنهم لم يُقدموا على سياسة التدمير حتى رأوا أنها خير سياسة تتبع، بَيْدَ أَنَّ الأساس المتين في حكم البلاد الحرة بعد فتحها هو تخريبها وتدميرها، فإن لم يهلكها الفاتح أهلكته؛ لأن مثل تلك البلاد إذا سالمت الفاتح أمدًا تفتأ تذكر الحرية، فتشعل الذكرى في قلوب أهليها نيران الغيظ والفتنة، ولا تهدأ تلك النيران ما دام تاريخ الآباء والأجداد لا يزال محفوظًا في قلوب الأولاد والأحفاد؛ لأنه لا يمحو اسم الحرية شيء، فلا منح المانح ولا

كر الدهور يمحوان اسمها من قلوب نشأت عليها وتعودتها، ولنضرب مثل «بيزا» التي طال عليها أمد الذل في عهد حكومة «فرنسا»، فإنها كانت أبدًا تطالب بالحرية وتحاج أهل «فلورنسا» بأنهم سلبوها أعظم نعمة.

أما إذا كانت البلاد متعودة حكم أسرة مالكة، فهلاك تلك الأسرة يسهل على الفاتح امتلاك البلاد؛ لأنها مفطورة على الطاعة، ولأنها تبحث عن أمير لها بعد هلاك الأسرة المالكة فلا تجد، ويصعب عليها أن تختار أميرًا من الشعب لما يكون عادة بين الأفراد من التنافس، ولذلك لا تقوى الولاية على أن تعيش حرة مستقلة، وبهذا تضعف عن حمل السلاح، فيتمكن أي أمير حاذق من الاستيلاء عليها، هذا إذا كانت حكومة البلاد ملكية، أما إذا كانت جمهورية فتخريبها خير وسيلة لامتلاكها؛ لأنها لن تنسى حريتها القديمة، ولا يطفئ ذل الأسر من نفوس أهلها جذوة الحرية.

الفصل السادس

في الولايات التي امتُلِكت بقوة الأمير وجيوشه

لا يُدهش القارئ استشهادي أثناء الكلام على الولايات الحديثة الامتلاك بالنسبة للحكومة والأمير بأمثال عالية؛ لأنني رأيت أن البشر يسيرون في خطوات أسلافهم، وأبناء اليوم يقتفون آثار أبناء الأمس ويقلدون أعمالهم، ولمَّا كان النسج على منوال الماضين بالدقة والكمال نادرًا، كما أن بلوغ شأوهم يكاد يكون مستحيلًا، فينبغي للحكيم الحذِر أن يتشبه بعظماء الرجال وأن يقلد أجلَّهم قدرًا وأرفعهم ذكرًا، فإذا لم يلمس بكفه الفرقدين فإنه على أية حال ينال من المجد نصيبًا يدنيه من درجاتهم، فيكون مثله كمثل الرماة الحاذقين، إذا أراد أحدهم أن يصيب غرضًا بعيدًا جدًّا — وهو عالم بقدر ما تصل إليه سهامه — شد قوسه بقوة، وصوَّب سهمه إلى غاية أقصى من الغاية التي يريدها، لا ليصيب هدفًا أبعد من الهدف الذي يرميه، إنما ليتمكن من إصابة الغرض الأصلي.

أقول: إن امتلاك الولايات الجديدة يتوقف على كفاية الأمير الجديد وحذقه، وكما أن بلوغ أحد الأفراد مركز الإمارة يستدعي أحد شيئين: إما قدرة عظيمة، وإما حظًّا وافرًا. كذلك الأمر في امتلاك الولايات الجديدة، فإن كفاية الأمير أو حسن حظه أو كليهما يسهلان كثيرًا من المصاعب، ويزيلان معظم العقبات، بَيْدَ أَنَّ الذين يُعْوِزهم الحظ الوافر يكونون في معظم الأحوال أكثر توفيقًا ممن حبتهم الكواكب بحسن الطالع؛ لأنهم أبدًا يخشون العواقب، ويحسبون لكل حركة وسكنة حسابها، كذلك إقامة الأمير في الولاية الجديدة يخفف عنه أعباء المتاعب الأولى.

وإني أحسب أن أعظم مَن وصلوا إلى مرتبة الإمارة بجدهم واعتمادهم على أنفسهم فكانوا جديرين بها هم: «موسى النبي» و«قورش» و«روميلس» و«طيصص» وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم، وإن كان لا يليق بنا في هذا المقام أن نذكر موسى بين الأمراء؛ لأنه لم يكن إلا رسول الله وخليفته في إنجاز ما أراده سبحانه، إلا أنني لا أستطيع إلا الإعجاب به؛ لما تحلى به من الصفات الجميلة التي قربته من الله، وجعلته كليمه وترجمانه، وكذلك قورش وأمثاله ممن ملكوا الولايات وأسسوا الممالك، يستحقون الإعجاب والثناء، وإذا فحصنا أعمالهم الخاصة وفحصنا ضروب سياستهم لا نرى أنهم يختلفون كثيرًا عن موسى، وإن يكن أستاذه ومرشده هو الله جلت قدرته.

إذا رجعنا إلى حوادث هؤلاء الأمراء الفخام رأينا أنهم غير مدينين بعظمتهم لحسن الحظ، إنما الذي خدمهم هو بعض الفرص التي سنحت ومنحتهم مادة يشكلونها في أحسن تقويم يريدون، فإن لم تسنح لهم تلك الفرص لذهبت قواهم هباء، ولولا قواهم وكفايتهم لولَّت تلك الفرص أدراج الرياح، كان من الضروري لفوز «موسى» أن يجد بني إسرائيل أذلَّاء في «مصر» مضطهدين من أهل وادي النيل، ليكونوا أطوع إليه من بنانه إذا قادهم للهجرة من مكان يقيمون فيه على الضيم والهوان، كذلك كان من الضروري أن لا يبقى «روميلس» في «ألبا» وأن يُلقى به يوم ميلاده في مكان مهجور لينهض في المستقبل وليقوم بتأسيس «رومة» وخلقها، وكان كذلك من الضروري أن يأتي «قورش» في وقت كان الفرس فيه متذمرين من دولة «ميديس» وأن يكون «ميديس» قد فقد صفات الفروسية، ونسي فنون الحرب، وخلع رداء الرجولية من طول سيادة السلم في ملكه، كذلك لم يكن «لطيصص» أن يظهر كفايته واقتداره إذا هو لم ينتفع بالتفريق الذي كان سائدًا في «أثينا».

مما تقدم نرى أن الفرص هي التي سهلت الطريق لهؤلاء الرجال، وأن صفاتهم العظيمة مكنتهم من الانتفاع بتلك الفرص ليمجدوا أوطانهم وليزيدوها عزًّا وقوة، وأمثال هؤلاء الذين ينالون الملك بالقوة يجدون في أول الأمر مصاعب جمة، ولكنهم لا يلقون أقل عقبة في الامتلاك التام إذا استتب لهم الأمر، ومعظم العقبات التي تعرض لهم تنشأ عن القواعد والنظامات الجديدة التي يدخلونها على الولايات الحديثة والتي يقتضيها بسط النفوذ.

وغني عن البيان أنه ليس في سياسة الأمم شيء أصعب تنفيذًا ولا أخطر عاقبة من تبديل الشئون القديمة بغيرها؛ لأن للمصلح أعداء في أشخاص المنتفعين بالنظام القديم

وهم كثيرون، وبعض أنصار ضعاف مترددين، وهذا الضعف في المناصرة ناشئ عن خوفهم من أعدائهم الذين يرون في القوانين القديمة قبل تبديلها أعظم معضد وأقوى نصير أولًا، وناشئ من ارتيابهم في نتيجة الإصلاح ثانيًا، والارتياب من غرائز الإنسان الذي لا يستطيع الاعتقاد بصحة شيء من الأشياء إلا إذا رأى نتيجته بعينه ولمسها بيده؛ ولذا يقاوم المصلح أعداءه بقوة الخصوم الأشداء، ويناصره أصحابه بقلوب فيها مرض وعزم فاتر، وويل لمن كانت تلك حاله بين خاذليه وأنصاره.

لا بد لفحص هذه المسألة من الوقوف على حقيقة مهمة، وهي: هل هؤلاء المصلحون مستقلون، واثقون من أنفسهم، معولون عليها، أم هم معتمدون على سواهم في تنفيذ مآربهم، محتاجون إلى التمليق والمداهنة، ضعيفو الجانب، عاجزون عن تنفيذ الأغراض بالقوة؟ فإن كانوا كما وصفت أولًا، أي مستقلين واثقين من أنفسهم معولين عليها، فإن فشلهم نادر الوقوع جدًّا، وإن كانوا كما وصفت ثانيًا، معتمدين على سواهم في تنفيذ مآربهم، محتاجين إلى التمليق والمداهنة، عاجزين عن تنفيذ الأغراض بالقوة، فإن النصر والفوز يكونان نادري الحدوث.

لذلك نرى سائر الأنبياء الذين أرسلوا، وأرشدتهم العناية إلى الاستعانة بالحرب والقوة فازوا في تبليغ رسالتهم، وأن سواهم ممن اكتفوا بالوسائل السلمية قد فشلوا؛ وهذا؛ لأن أخلاق الشعوب قليلة الثبات على حال واحدة، وإذا أمكن إغراء طائفة وإقناعها برأي جديد فإنه يكاد يستحيل ضمان ثباتها عليه، فمن الضروري — والحال هذه — أن يستعد النبي للطوارئ، فإن آمن القوم واعتقدوا باللين والمحاسنة فحبًّا وكرامة، وإلا فهو يرغمهم على الاعتقاد والإيمان بحد السيف ورأس الرمح، ولم يكن «موسى» و«قورش» و«طيصص» و«روميلس»؛ ليتمكنوا من تثبيت دعائم النظامات التي أسسوها أمدًا طويلًا لو كانوا عزلًا من السلاح، كما حدث في عهدنا «لجيرولامو سافونارولا» الذي فشل في عمله، وعجز عن تشييد أركان مذهبه عندما بدأ الغوغاء ينفضُّون من حوله؛ وذلك؛ لأنه لم يكن له من الوسائل ما يستطيع به استبقاء من لا يزالون يعتقدون فيه، وإرغام الجاحدين على الإيمان به؛ لأجل هذا أقول: إن أمثال هؤلاء الرجال يجدون صعوبات عظيمة جدًّا في الوصول إلى غايتهم، وينبغي لهم أن يتغلبوا على كل ما يعترضهم أثناء الطريق بكفاءتهم وقدرتهم، فإذا استطاعوا المقاومة وتغلبوا على تلك العقبات، وبدأ الناس يقدرونهم قدرهم ويبجلونهم، وإذا استطاعوا أيضًا أن يخفتوا أصوات حاسديهم، فإنهم يعيشون أقوياء مؤيدين محترمين سعداء.

وسأضيف إلى الأمثال العالية التي ضربتها مثلًا أقل منها درجة، ولكنه من نوعها، وهو مثل «جيرون السرقسطي» الذي صار ملكًا بعد أن كان من أفراد الرعية، ولم يعضده في الوصول إلى هذا الشأو إلا الفرص وصفاته الكاملة؛ فإن أهل «سرقسطة» الذين كانوا مظلومين مضامين مضطهدين انتخبوه رئيسًا لهم، ثم صار أميرًا عليهم؛ لأنه كان بالإمارة جديرًا، فقد كُتب عنه — وهو لا يزال خاملًا — أن فضائله ترفعه إلى مراتب الملوك، وأنه لا ينقصه إلا صولجان وعرش، فلما أن استوى على أريكة الإمارة فرق شمل الجيش القديم، وحشد جندًا سواه، وتخلى عن أصحابه القدماء، واختار أصدقاء جددًا، وبعد أن أسس هذا الأساس المتين وهو حشد جيش جديد وتأليف صداقات حديثة، أخذ يشيد بثبات وقوة، فتعب في بداية الأمر كثيرًا، ولكنه لم يلقَ في الإبقاء على ما حصل عليه أقل صعوبة.

الفصل السابع

في الولايات الجديدة التي يكون الفضل في امتلاكها لحسن الحظ أو تعضيد الغير

إن الذين يرتقون من عامة الشعب إلى درجة الملك والإمارة بفضل حسن الطالع لا يجدون أقل صعوبة في الارتقاء، ولكنهم يجدون أعظم المصاعب في الاحتفاظ بما وصلوا إليه، إنهم لا يلقون العقبات؛ لأنهم يطيرون ولا تلمس أقدامهم وجه الأرض، ولكن تلك العقبات تفاجئهم إذا استقروا واستتبوا، ونزع الجد عنهم جناحه الذي أعارهم إياه، ومثل هؤلاء من يحصلون على الملك شراء بالمال أو هبة ممن يهب الممالك كما وقع لكثيرين في إغريقيا «بلاد اليونان» في مدن «إيونيا» وجزر «هيلسبونتا» فقد حبى «دارا» عددًا من الرجال بالإمارة ليمجدوه ويرفعوا ذكره، وكذلك جماعة الإمبراطرة الذين ارتفعوا من الشعب إلى عروش القياصرة بمداهنة الجيوش وإفسادها.

وهؤلاء يعتمدون في حياتهم الجديدة على إرادة من رفعوهم، ويعلقون حظوظهم بحظوظهم، وإرادة الرجال وحظوظهم كثيرة التقلب ولا ثبات لها، وأمثال هؤلاء لا يعرفون كيف يحتفظون بمراكزهم، والأحوال المحيطة بهم لا تسمح لهم بذلك؛ لأن الرجل إن لم يكن عبقريًّا لا يستطيع أن يأمر إذا كان قد قضى شطرًا من حياته خاملًا، ثم إذا حاول تنفيذ أمره عجز عن ذلك؛ لأنه ليس لديه قوة يرغم بها من يخالفه، وأضف إلى ذلك أن الممالك السريعة التأسيس يكون مثلها كمثل الموجودات التي تولد وتنمو بسرعة، فلا يكون مثلها إلا كبعض النبات ليس له جذور قوية، وظاهره يبهر الناظرين، ولكن حياته لا تطول فتهلكه العاصفة الأولى.

أما إذا كان الرجل الذي بلغ مرتبة الإمارة ذا كفاية ومهارة تمكنانه من النهوض، وإفراغ الجهد في الاستيلاء على ما منحه الحظ، ثم يأخذ بعد ذلك في وضع الأساسات التي يشيدها سواه قبل أن يصل إلى درجة الملك، فإن عمله يختم بالفوز.

وسأضرب الآن للقارئ مَثَلي رجلين، بلغ أحدهما المُلك بقدرته وذكائه، وهو «فرنسيسكو سفورزا» وبلغه الثاني بفضل حسن طالعه، وهو «قيصر بورجيا» فأقول: صار «فرنسيسكو» بحذقه وبالوسائل السياسية الحكيمة دوق «ميلانو» وما حصل عليه بعد مقاساة الأهوال الشداد احتفظ به بكل سهولة، أما «قيصر بورجيا» المعروف باسم دوق «فالنتين» فقد وصل إلى الملك بفضل حسن طالع أبيه، وفقده بهذا السبب عينه رغم كل المساعي التي يبذلها رجل حكيم حذر مثله ليحفظ ما ورثه من سلفه، وقد قلت آنفًا إن من لا يضع الأساس في أول الأمر يمكنه أن يضعه بعد الوصول إذا كان ذا اقتدار نادر وعظمة حقيقية، مع ما في ذلك من التعب الذي لا يطاق لمن يشيد، والخطر الذي يتهدد البناء كله، فإذا تأمل الإنسان فيما وصل إليه الدوق رأى أن متانة الأساس وقوته خدمتاه وسهلتا عليه التشييد، ولو أنه فشل في مساعيه فإن اللوم في ذلك لا يعود عليه، إنما على سوء الطالع الذي رزأه ونكبه بما سبب خيبته، وقد لقي «إسكندر» السادس في تكبير شأن ابنه صعوبات كثيرة تعوقه عن الوصول إلى غرضه في الحاضر، وتعترض سبيله في المستقبل، فإنه رأى استحالة رفعه إلى عرش مملكة غير خاضعة للكنيسة، وأنه إذا حاول الاستيلاء على بعض أملاك الكنيسة سيمانعه دوق «ميلانو» وأهل «فينيسيا» لأن «فاينزا» أو «ريميني» كلتيهما كانتا تحت حماية «البندقية».

ثم رأى أيضًا أن عدد «إيطاليا» وجنودها لا سيما الجنود والعِدد التي كان يرجو أن تخدمه كانت كلها في أيدي جماعة يخشون نمو عظمة «البابا» ولأجل هذا لم يكن ليعوِّل عليهم؛ لأنهم كانوا جميعًا تحت سيطرة آل «أورسيني» و«كولوناس» وأتباعهما، فكان من الضروري — والحالة هذه — لأجل الاستيلاء على بعض ولايات «إيطاليا» إحداث قلاقل كبرى وتغيير نظام الحكومات الإيطالية، وكان هذا من السهل عليه؛ لأنه رأى أن أهل «البندقية» قد استقدموا ملك «فرنسا» وجنوده إلى «إيطاليا» وأنه لم يعارض ذلك الاستقدام بل عضَّده، بأن سهل تطليق «لويس» زوجته، فكأن الملك «لويس» ورد «إيطاليا» بعد دعوة أهل «البندقية» ورضى «إسكندر» ولم يكد يصل «ميلانو» حتى طلب «البابا» منه جنودًا لمحاربة «رومانيا» وقد تم للبابا الفوز في تلك الحرب؛ لأنه كان مستندًا على شهرة الملك وَصِيتِهِ، فلما أن استولى دوج البندقية على رومانيا وهزم الكولوناس، عاقه أمران عن الاحتفاظ بها والاستمرار في فتوحه؛ الأول: جنده، فإنه بدأ يسيء الظن بأمانتهم وإخلاصهم. والثاني: إرادة «فرنسا» فإنه خشي أن

يتخلى عنه آل «أورسيني» ويستردوا عددهم وأسلحتهم التي كان يحارب بها، فتكون عاقبة ذلك التخلي عن الاستمرار في الحرب واغتصاب ما افتتحه. وخشي أيضًا أن الملك نفسه قد يفعل به ذلك، وقد كان متحققًا من هذه النتيجة من وجهة آل أورسيني لأنه لحظ منهم ترددًا وانكماشًا أثناء هجومه على «بولونيا» بعد أخذه «فاينزا» أما من وجهة الملك «لويس» فقد فطن الدوق إلى سوء مقاصده بعد أن استولى على دوقية «أوربينو» وحاول مهاجمة «توسكانيا» فأوقفه الملك عند حده، وعاقه عن إنجاز هذا المشروع، فعلم الدوق لساعته أنه من العبث أن يعتمد الفاتح على عَدد غيره وعُدده، وأن المحارب ينبغي له قبل كل شيء أن يكون مالك سلاحه.

وكان أول عمل له إضعاف أحزاب آل «أورسيني» و«الكولوناس» في «رومة» بأن قرَّب إليه أتباعهم وأنصارهم، وحباهم بالتحف والهدايا، ورتب لهم الأرزاق الواسعة، ووضع كلًّا منهم في مركز يليق به، وبذلك قطع ما كان بينهم وبين رؤسائهم الأُول في بضعة أشهر، ووطد بينه وبينهم علائق المودة والإخلاص، ولما سنحت له الفرصة انتفع بها تمام الانتفاع، وبيان ذلك أن آل أورسيني لما شاهدوا عظمة الدوق وفلاحه وتقدم الكنيسة وقوتها، علموا أن نكبتهم وخرابهم في استمرار الحال على تلك المنوال، فطلبوا عقد مؤتمر بمدينة «ماجيونا ببرجينو» فنشأ من ذلك ثورة «أربينو» وقلاقل رومانيا، ولا يخفى ما في تلك الاضطرابات من المشاكل المهددة لمركز الدوق الذي أسرع في العمل لإطفاء شعلتها قبل أن يحمى وطيسها، وقد استعان في ذلك بفرنسا، فلما عادت إليه قوته وبطشه اعتمد على السياسة والدهاء ليبتعد عن الانتصار بالأجنبي، وقد أحسن الدوق السياسة وصوب سهام الدهاء تصويبًا مكنها في نحور أعدائه، فاضطر آل أورسيني إلى مصالحته ومسالمته على يد السنيور «باولو» ففرح الدوق لذلك الصلح؛ لما كان يرجوه من ورائه، وأتحف آل أورسيني بالحلي الثمينة والحلل المطرزة والخيل المطهمة والأقدار الطائلة من الذهب والمعادن النفيسة، فبهرتهم تلك الهدايا لبساطتهم، فقدموا عليه في «ستيجاجليا» ووقعوا في يده، فلما أن تمكنوا منهم كان كأنه حظي بما في الدنيا بأجمعها فأهلكهم، وكان قد قرب أنصارهم إليه كما تقدم، وبذلك وضع لقوته أساسًا متينًا بعد أن حصل على «رومانيا» وامتلك دوقية «أوربينو» ثم حصل على إخلاص السكان ومودتهم؛ لأنهم شعروا بحكومته الطيبة، وذاقوا حسنات عهده، وحيث إن هذا الجزء من سياسة الدوق مهم جدًّا وجدير بالذكر، وخليق بأن تتبع في مثله خطة الدوق، فسأتكلم عنه بالتفصيل فأقول: إنه لما امتلك «الرومانيا» كان يحكمها

أمراء ضعاف همهم الإثراء لا حكم الرعية، فنشأت الخصومات في الولاية وساد الشقاق والانقسام بديلًا من الأمن والوئام والألفة، وأصبح السكان معرضين للجرائم والسرقات، ووجدت الأحقاد القديمة مجالًا للظهور، وخلا الجو للعداوات، فتحكمت الفوضى واسْوَدَّ وجه الحق، فرأى الدوق أن ينظم الحكومة قبل كل شيء لتأمن الرعية جانب المظالم، ولتشعر بلذة الاطمئنان، فتُسلِمه قيادها وتنصاع إليه، فعين مستر «ريمرو دوركو» واليًا على الرومانيا، وكان هذا الرجل قاسيًا مقتدرًا، ثم أطلق يده وحباه الحرية المطلقة، فأصلح دوركو في الولاية ما أفسده العهد القديم، وغرس بجوانبها بذور الأمن والاتحاد في عهد قصير، فرأى الدوق أن القسوة والسلطة المطلقة تؤذيان إذا طال عهدهما، وخشي أن تنعكس الآية وتنقلب غايته من استعمال الحاكم الشديد البطش، فدوَّن محكمة مدنية في عاصمة الولاية وعين لها رئيسًا فاضلًا، وأباح لكل بلد أن يرسل بمحامٍ ينوب عنه، وكان يعلم الدوق أن للقسوة السالفة أثرًا في النفوس، وأراد أن يزيله ليمتلكها، فأعلم القوي أنه بريء مما يقع من الشدة وإنَّ عامِله «دوركو» هو المسئول وحده عن ذلك لما عُرف عنه من الحدة والشراسة، ثم أراد الدوق أن يخلص من دوركو فاتهمه وسجنه، ثم ساقه إلى ميدان «سزنا» وأمر بشق بدنه شقين وطعنه بخنجر، فذعر السكان من فظاعة هذه القتلة، وفرحوا لخلاصهم من قسوة الحاكم الظالم.

ولما أن شعر الدوق بقوته وأمن الأخطار التي كانت محدقة به، لا سيما بعد أن ضعف جيرانه، وكان يخشى جانبهم، رأى أنه لا يستطيع الاستمرار في امتلاك البلاد إلا إذا اكتسب احترام فرنسا، ولم يعوِّل على تعضيد ملكها؛ لأنه علم أن ملك فرنسا فطن إلى خطئه السابق في تعضيده، وصحت عزيمته على الضن بمواصلته ومناصرته، فلم يرَ الدوق أمامه إلا الانضمام إلى «فرنسا» في محاربة مملكة نابولي ضد الإسبان الذين كانوا يحاصرون «جايتا» وكانت غايته مع الاتفاق مع «فرنسا» أن يأمن جانب الإسبان، وكان يكون هذا من السهل لو عاش البابا إسكندر، هذا كان مشروعه فيما يتعلق بالحاضر، أما ما كان يتعلق بالمستقبل فإن الدوق كان يخشى بعد موت إسكندر انقلاب خليفته عليه فيسلبه ما منحه البابا السابق، لذا اتخذ لاتقاء هذا الخطر أربع وسائل؛ الأولى: إهلاكه سائر فروع الأسر المالكة التي اغتال عروشها ليسد الباب في وجه البابا إذا أراد ترشيح أحدها إلى عرش آبائه. الثانية: اكتساب مودة نبلاء «رومة» ليتمكن بصداقتهم من إرهاب البابا. الثالثة: حصوله على ما استطاع من النفوذ على القسيسين. الرابعة: الوصول في حياة البابا والده إلى درجة من البطش تمكنه من مقابلة الصدمة الأولى

بمفرده ومقاومتها جهده. وقد أتم ثلاث وسائل من تلك الأربع قبل موت البابا، وأوشك أن يتم الرابعة؛ لأنه قضى على من طالته يده من الأمراء المخلوعة، وقليل منهم فرَّ من يده، واكتسب رضى أشراف الرومان، وكان له في الكلية الدينية نفوذ عظيم، أما عن الأملاك الجديدة فإنه رسم لذاته أن يسود «توسكانا» وكان منذ حين يملك «بروجيا» و«بيومبينو» وكانت بيزا في حماه، ولما كان لا يخشى شيئًا من جانب الفرنسيس مذ أفقدهم الإسبان ملك نابولي، وكان الإسبان يخشون جانبه، فقد أمن جانب الفريقين واستولى على بيزا.

وبعد ذلك سلمته «لوكا» و«سينا» قيادهما طوعًا، إما حسدًا لفلورنسا وإما خوفًا، ولكن فلورنسا كانت ضعيفة الحول والطول، فلو وُفِّق الدوق في هذا العام إلى مثل ما وفق إليه في العام السالف الذي قضى فيه «الإسكندر» لكسب من القوة والشهرة والنفوذ ما يغنيه عن الاعتماد على قوة سواه، ولكن «الإسكندر» مات لخمس سنين خلت منذ جرد ابنه الحسام، ولم يترك له سوى ولاية «رومانيا» وطيدة الأركان، وما عداها معلقًا في الهواء بين جيشين عدوين قويين، وخلَّفه مريضًا بداء قاتل، ولكن الدوق كان مقدامًا مقتدرًا، وكان خبيرًا بقلوب الرجال، يعلم كيف يكسبهم وكيف يقهرهم، كذلك كان الأساس الذي وضعه في زمن قصير قويًّا متينًا، فلو لم يكن حياله الجيشان اللذان ذكرت أو لم يكن يشكو داء قاتلًا لتغلب على كل ما كان يعترضه من العقبات.

أما الدليل على ثبات ما وضع من الأساسات فانتظار رومانيا إياه أكثر من شهر، كذلك لما كان في رومة بين حي وميت كان مركزه وطيدًا رغم قدوم «فيلي» و«أورسيني» اللذين لم يجدا له في البلد عدوًّا، على أنه كان لا يستطيع أن يرفع من شاء إلى مقام البابوية، ولكنه كان يستطيع أن يبعد عن ذلك المقام من لم يشأ أن يشغله، فلو كان لدى موت الإسكندر متمتعًا بصحته لسهل أمامه كل صعب، وقد قال لي يوم تولى البابا «يوليوس الثاني» إنه فكر في كل ما عساه يحدث عند موت أبيه، وأنه وجد لكل مشكلة حلًّا سوى مشكلة واحدة غابت عن ذهنه، وهي أنه سيكون ذاته لدى موت الإسكندر على وشك الموت.

وقد أشرت فيما مضى إلى أن أعمال الدوق ينبغي أن تكون نبراسًا لمن يصلون إلى الملك بالحظ أو بالاعتماد على قوة الغير؛ لأن الدوق كان ذا نفس كبيرة ومقصد سامٍ، ولم يكن يستطيع أن يسلك في الحكم سبيلًا سوى الذي سلك، ولم يتعرض خطته التي رسمها لنفسه سوى قِصر حياة الإسكندر واعتلال صحته، فمن يريد في مُلك جديد

أن يتقي الأعادي ويكسب مودة الأصدقاء، ويقهر بالقوة أو الخديعة، ويحبب نفسه للشعب، ويلقي في فؤاد الناس رهبة، ويطيعه الجند ويتبعه، وأن يهلك من يستطيعون إيذاءه، وأن يدخل الإصلاح في العادات والرسوم القديمة، وأن يكون قويًّا تارة وشفيقًا طورًا، وأن يكون عظيمًا وكريمًا، قديرًا على فناء جيش قديم وخلق جيش جديد، وأن يحافظ على ودِّ الملوك والأمراء بحيث يفرحهم أن ينفعوه ويخيفهم أن يؤذوه، من يريد ذلك كله فعليه أن يتبع أعمال الدوق ويقلده.

بَيْدَ أنَّ الدوق اقترف خطأ في رفع يوليوس الثاني إلى عرش البابوية، وعذْره في ذلك أنه لم يكن يستطيع إذ ذاك أن يعين من يريد رفعه إلى مقام البابوية، فلم يكن يخلُق به أن يرفع واحدًا من الكرادلة الذين أساء إليهم أو الذين استولى رعبه على قلوبهم؛ لأن الرجال تؤذي الرجال إما رعبًا وإما بغضًا، وكان ممن ناله أذاه «سان بطرس أدفينكولا وكولونا سان جيورجيو وأسكانيو» أما من عداهم فكانوا ممن يرهبونه عدا «روهان» والكرادلة الإسبانيين؛ لأن روهان كان من أقرباء ملك فرنسا، وكان ذا بطش، ولأن كرادلة الإسبان كان بينهم وبينه روابط نسب وقربى، لأجل هذا كان ينبغي للدوق أن يسعى في تعيين البابا من الإسبانيين أو أن يرضى «بروهان» بابا لا أن يرفع إلى البابوية «سان بطرس أدفينكولا» ومَن يحسب أن الإحسان الحديث يمحو أثر الإساءة السالفة من نفوس العظماء فقد أخطأ، وقد كان هذا الخطأ سببًا في هلاك الدوق.

الفصل الثامن

فيمن بلغوا الإمارة بالإثم والغدر

وحيث إنه من المستطاع بلوغ بعض الأفراد مرتبة الإمارة بوسيلتين لا يمكن نسبتهما إلى الفضيلة أو إلى الحظ فلن أهملهما، وإحداهما جديرة بالإسهاب لو كان البحث قاصرًا على الجمهورية، أما الوسيلتين فأولاهما أن يبلغ الفرد مرتبة الإمارة بالغدر والخديعة والإثم، وثانيتهما بلوغ فرد مرتبة الإمارة رغبة من أهل وطنه في رفعته، ويوجد في التاريخ للوسيلة الأولى مثلان؛ الأول في العصور الغابرة. والثاني لعهدنا، وسأتكلم بدون إسهاب في منفعة تينك الوسيلتين؛ لأنني أرى في المثلين كفاية لمن يضطر لتقليدهما.

المثل الأول هو مثل «أجاتوكل» الصقلي الذي صار ملك «سرقصة» مع أنه من أصل وضيع صغير، كان أجاتوكل هذا ابن نجار، وكان في كل أطوار حياته شريرًا غادرًا، بَيْدَ أنَّ شرَّه وخبثه كانا مصحوبين على الدوام بقوة العقل ونشاط البدن، فلما التحق بالجندية ارتقى سائر درجاتها حتى صار حاكمًا «لسرقصة» فلما بلغ هذا المنصب، وكان صح عزمه على بلوغ الإمارة، والحصول بالشدة، وبدون تعضيد السوى على ما لم ينله بالرضى والوفاق، أسرَّ عزمه إلى «هملقار القرطاجني» الذي كان يحارب وجنوده «بصقلية» ثم دعا أهل سرقصة صباح يوم وجمع مجلس السناتو كأنه يريد البحث في أمور ذات شأن تتعلق بالجمهورية، ثم أمر جنده بإشارة معلومة فذبحوا أعضاء مجلس السناتو وأكابر أهل البلد، وبعد تلك المذبحة استولى على المدينة واحتلَّ منصب الإمارة، ولم يلقَ في طريقه عقبة، ثم هزمه القرطاجنيون مرتين وحصروا المدينة، فتمكن من الدفاع ثم ترك جزءًا من جيشه لحمايتها، وأغار ببقية جنده على أفريقيا، وعاد ففكَّ حصار سرقصة وضيَّق الخناق على القرطاجنيين، فاضطروا لعقد الصلح معه وقنعوا بما يملكون في أفريقيا، وتركوا صقلية لأجاتوكل.

ومن ينظر في أعمال وصفات ذلك الرجل يرى أشياء قليلة يمكن نسبتها إلى الحظ؛ لأنه بلغ منصب الإمارة بدون تعضيد السِّوى، بل بوصوله إلى أعلى الدرجات في الجندية، وهو ما لا يُبلغ إلا بمشاقٍّ شديدة والتغلب على مصاعب جمة، وقد كلفه الاحتفاظ بمنصبه مثلما كلفه الحصول عليه، كما أننا لا ننسب بلوغه مركز الإمارة إلى الفضيلة؛ لأن ليس من الفضيلة في شيء أن يذبح الرجل أبناء وطنه وأن يخون أصدقاءه، وأن يكون بلا ذمة ولا رحمة ولا دين، وإن سهلت تلك الآثام نيل الملك فإنها لا تنيل صاحبها مجدًا.

إن صفات أجاتوكل التي سهلت له اقتحام الأخطار والتغلب على الشدائد، وكبر نفسه الذي يسَّر له الصبر على المكاره، خليقة بأن تجعله في صفوف كبار القواد، ولكن خشونته البربرية وفظائعه التي لا تُحصى وبُعده عن صفات الإنسانية لا تخول لنا ذكر اسمه بين مشاهير الرجال، ولا يمكننا أن ننسب للحظ أو للفضيلة ما تم له بدونهما أو بدون أحدهما.

وفي وقتنا هذا تحت حكم «الإسكندر السادس» عهِد إلى «جيوفاني فوجلياني» أمر تربية ابن أخيه «أوليفرتو دوفورمو» الذي خلفه أبوه صبيًّا، فلما يفع أرسله عمه ليتعلم فنون الحرب تحت قيادة «باولوفيتلي» ليتيسر له في المستقبل الحصول على مركز حربي سامٍ، ولما قضى باولو استمر أوليفرتو تحت قيادة شقيق رئيسه السابق «فيتلوزو»، ولما كان الصبي ذكيًّا قويًّا صار في برهة في عداد القواد، ولكنه رأى من الذل البقاء تحت إمرة الغير، فقرَّ رأيه على احتلال «فرمو» وانضم إلى فريق من أهلها يفضلون الذل على حرية وطنهم، ووافقه في مشروعه «فيتليس» فكتب إلى عمه جيوفاني فوجلياني يقول له إنه مشتاق إلى رؤيته ورؤية مدينته بعد أن قضى زمنًا طويلًا مغتربًا، فهو يريد أن يعود إلى فرمو ليرى عمه وملكه، وحيث إنه لقي أشد الصعاب في سبيل الشرف وليعلم أبناء وطنه أنه لم يقضِ وقته عبثًا، فهو يرجوه أن يعود عودة الظافر محاطًا بمائة فارس من أصحابه وأتباعه، وتوسل إلى عمه أن يأمر بلقائه لقاء تشريف، وأن يدعو أهل فرمو لمقابلته؛ لأن ذلك لا يشرف أوليفرتو بمفرده، بل يشرف قدر عمه الذي كان وصيًّا عليه، فلم يقصر جيوفاني في القيام بما طلب إليه ابن أخيه، وأمر أهل فرمو أن يقابلوه مقابلة كبرى وأنزله في منازله، وبعد أيام قليلة أعدَّ فيها أوليفرتو ما كان يريد إعداده لإنقاذ مشروعه الذميم، دعا عمه جيوفاني فوجلياني وفريقًا من أكابر فرمو لوليمة عظيمة، وبعد الفراغ من تناول الطعام والأحاديث المعتادة في مثل

تلك الأحوال، أدخل أوليفرتو في الحديث بعض الأمور المهمة، وتكلم عن عظمة «البابا إسكندر» وولده «قيصر بورجيا» وعن أعمالهما، فأجاب جيوفاني وبعض الحاضرين على قول أوليفرتو، فنهض وقال: إن هذه المسائل ينبغي أن يُبحث فيها في مكان سري، ثم دخل غرفة أخرى فتبعه إليها عمه جيوفاني وبعض الحاضرين، فلم يستقر بهم الجلوس حتى خرج عليهم جنود كانوا مختبئين في المكان وذبحوهم، وبعد تلك المذبحة ركب أوليفرتو جواده وسار في المدينة، فحصر القاضي في قصره حتى اضطره رهبة للاتفاق معه على تأسيس حكومة وبلوغه مرتبة الإمارة، ثم قضى على كل من كان يخشى عدوانهم، وقد دام عهده عامًا لم يكن فيه آمنًا في مدينة فرمو وحدها بل كان مهاب الجانب ممن جاوره من الملوك والأمراء، وكان يستحيل سقوطه كما استحال سقوط «أجاتوكل» إذ لم تخدعه حيلة «قيصر بورجيا» عندما حاصر «آل أورسيني» و«آل فيتلي» في «سينيجاجليا» كما رويت، حيث أُخذ هو وأستاذه القديم «فيتلوزو» وخُنقا.

قد يندهش البعض من أن رجالًا كأجاتوكل وأمثاله بعد أن اقترفوا خيانة وقسوة عاشوا آمنين في أوطانهم، وقدروا على المدافعة عن أنفسهم ضد الأعداء الأجانب بعد أن يثور الشعب ضدهم، مع أن كثيرين من الحكام والأمراء لم يستطيعوا أن يحتفظوا بالملك في وقت السلم فضلًا عن وقت الحرب، وجوابي على ذلك أن هذا راجع إلى الحكمة والطيش في استعمال القسوة — إذا كان يجوز اقتران القسوة بالحكمة — فالقسوة الحكيمة هي التي يستعملها الرجل ليحصل على مركز وطيد ثم لا يطول أمدها، بل تستبدل سراعًا بأعمال نافعة للرعية، أما القسوة الطائشة فهي التي تبتدئ شيئًا فشيئًا وتزيد على مر الأيام دون تنقص، فالذين يستخدمون القسوة الحكيمة قد يفوزون في إرضاء الله والناس كما كانت عاقبة أجاتوكل، أما الذين يستخدمون القسوة الطائشة فمن المستحيل عليهم أن يحتفظوا بمراكزهم؛ فينتج عن ذلك أن الفاتح الجديد ينبغي له في أول أمره أن يقترف ما أراد من صنوف القسوة مرة واحدة، بحيث لا يحتاج إلى العودة إليها مرارًا، وبذلك يأمن الشعب جانبه، فيعمل الفاتح على إرضائه وتهدئته، ومن يفعل ذلك في غير رهبة أو عن سوء نصيحة يبقى أبدًا مضطرًّا للوقوف والخنجر في يده، ولا يمكن أن يعوِّل قط على رعيته؛ لأن الرعية لا تستطيع التعويل على الأمير إذا كان له في كل حين شأن، فيلين يومًا ويشتد يومًا.

إن الإساءات ينبغي أن تتم مرة واحدة؛ ليكون ألمها مفردًا فتنسى سراعًا، أما الحسنات فينبغي أن تعطى شيئًا فشيئًا ليكون قدرها أعظم والتمتع بها أتم، وفوق

ذلك كله ينبغي للأمير أن يعيش مع شعبه على وتيرة واحدة، بحيث لا يضطر لتغيير سلوكه لخير أو شر، فإن فعل الخير المرغم عليه الأمير لا قدر له؛ لأن الخير ما لم يصدر عن طيب خاطر لا يستعبد القلوب.

الفصل التاسع

في الإمارة المدنية

وسنتكلم الآن عن فرد من أهل المملكة لم يصل إلى الإمارة بحزم أو باغتصاب، إنما برضى الوطنيين، وهذا ما يسمى بالإمارة المدنية، والوصول إلى ذلك راجع بالكلِّية إلى القدرة الشخصية أو إلى الحظ، والمتطلع إلى الإمارة يصل إليها في هذه الحال إما برضى العامة وإما برضى الأشراف والخاصة؛ لأن هذين الفريقين المتضادين يوجدان في كل بلد، ومنشؤهما رغبة الشعب في اتقاء ظلم العظماء، ورغبة العظماء في إخضاع الشعب وإذلاله، ومن وجود هذين الحزبين في بلد تنتج إحدى ثلاث نتائج: إما الحكومة المطلقة، وإما الحرية، وإما التطرف في الحرية والعبث بها. والتطرف في الحرية ينشأ من أحد أمرين: إما الشعب، وإما الأشراف، إذ ينتهز كل فريق منهما الفرص التي تسنح له ضد الآخر؛ لأنه عندما يرى الأشراف أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب، يتَّحِدون في رفع واحد منهم إلى مرتبة الإمارة ليسهل لهم تنفيذ مآربهم في كل سلطة، وكذلك الشعب إذا رآه عاجزًا عن مقاومة الأشراف رفع واحدًا من أبنائه إلى الإمارة ليحتمي به، ومن يرفعه الأشراف إلى طبقة الإمارة يجد في سبيل الحكم صعوبات أشد من التي يلقاها من يرفعه الشعب؛ لأنه يكون محاطًا برجال يعدون أنفسهم قرناءه وأمثاله، ولذا يلقى ذاته عاجزًا عن إدارة الشئون وتولي الأمر كما يريد.

أما الذي يرتفع إلى الإمارة برضى الشعب يجد نفسه فريدًا في مكانته، ويلقى الكل سوى نفر راغبًا في طاعته، وعدا عن ذلك فإنه يستحيل إرضاء الأشراف بإقامة العدل والكف عن إلحاق الأذى بالغير، ولكن هاتان الوسيلتان ترضيان عامة الشعب لا محالة؛ لأن غرض عامة الشعب أشرف من غرض الأشراف الذين غايتهم الاستبداد بالغير، وغاية العامة اتقاء الظلم، لذلك كان الأمير لا يمكنه أن يحفظ نفسه من غضب الشعب لوفرة عدد العامة، ولكنه يستطيع حماية ذاته ضد الأشراف لقلتهم، وشر ما

يخشى الأمير من العامة هو تركهم إياه، ولكنه يخشى من الأشراف مقاومة فعلية؛ لأنهم أبعد نظرًا من العامة وأكثر مكرًا، ويعلمون الوقت الذي ينقذون فيه أنفسهم باتخاذ جانب القوي الذي سيكون له الغلب، ثم إن الأمير لا غنى له عن الشعب إذ هو يعيش مع الأمة التي لا تتغير، ولكن الأشراف يتغيرون، وفي سلطة الأمير كذلك رفع العامة إلى مقام الأشراف وخفض الأشراف إلى مراكز العامة.

ولأجل إنارة البحث أقول: إنه يُنظر للأشراف من وجهتين مختلفتين، فمنهم المعتمدون على حظ الأمير، ومنهم ضد ذلك، فالذين يعتمدون عليك ولا يشوبهم الجشع ينبغي إكرامهم وحبهم، أما الذين لا يعتمدون عليك — أيها الأمير — فينبغي اعتبارهم من وجهتين أيضًا، فمنهم من يفعلون ذلك جبنًا، وهؤلاء ينبغي الانتفاع بهم، لا سيما من كان صاحب رأي صائب، وهؤلاء يمجدونك في فلاحك ولا يُخشى جانبهم في فشلك، ومنهم من يكونون مرتبطين بك ومعتمدين عليك عن رغبة في نيل مطامعهم، وهذا دليل على أنهم ينظرون إلى أنفسهم بعين غير التي ينظرون بها إليك، ويفكرون في ذواتهم دون ذاتك، فواجب الأمير في هذه الحال أن يحذر مثل هؤلاء الرجال ويعتبرهم أعداء خفيين يساعدون على الإيقاع به لدى الشدائد، أما الأمير الذي يصل إلى الملك بحب الشعب، فالواجب عليه أن يحافظ على صداقتهم، وهذا أمر سهل؛ لأن الشعب لا يطلب إلا رفع الضغط والكف عن الظلم، ومن يصل إلى الملك بتعضيد الأشراف ضد رغبة الشعب، فالواجب عليه أن يكسب وده، وهذا يسهل عليه إذا حماهم، وحيث إن الإنسان يقدر جميل من كان ينتظر منه شرًّا، فالشعب يميل إليك في تلك الحال أكثر مما لو وصلت إلى الملك برضائه ورغبته، واكتساب محبة الشعب في تلك الحال تتبع الأحوال، ولا يمكن أن تسن لها قاعدة مطردة.

وأقول في الختام: إن واجب الأمير أن يكسب ثقة الشعب وصداقته، وإلا لا ملجأ له في وقت الشدة ولا سلامة له حين المحنة، فإن «نابيش» أمير إسبرطة استطاع أن يقاوم حصار اليونان وجيشًا رومانيًّا ودفعهم عن وطنه واستبقى عرشه، وقد كفاه عندما أحدق به الخطر أن يتحقق من تعضيد فئة قليلة، ولم تكن هذه الفئة القليلة لتنفعه أو تدرأ الشر عنه لو لم يكن حائزًا رضى الشعب، ولا يعارضنَّ أحد رأيي بذكر المثل الشائع أن من يبني على رضى الشعب يبني على الرمل، فإن هذا المثل يصدق في حال فرد عادي إذا عول على الشعب، وأقنع نفسه بأنهم سيطلقون سراحه أو يحررونه إذا ضغط عليه أعداؤه أو ظلمه القضاة، فإنه في مثل هذه الحال كثيرًا ما يخدع الرجل كما حدث ذلك «لجراكوس» في «رومة» وللمستر «جورج سقالي» بفلورنسا.

أما إذا كان الأمير هو الذي بنى على هذا الأساس، وكان رجلًا يأمر وينهى، شجاعًا لا تنحل عزيمته في المحن ولا يهمل الإعداد للمصائب، ويمكنه أن يستنهض همة الشعب بثباته وفعاله، فلن يجد أنه شاد على الرمل، وفي العادة تكون الإمارات التي أصلها ما ذكرنا في أول هذا الفصل في خطر إذا تحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مطلق؛ لأن هؤلاء الأمراء المطلقين إما يحكمون بأنفسهم مباشرة وإما بواسطة عمال لهم، وفي هذه الحال الثانية تكون مراكزهم ضعيفة مهددة؛ لأنهم يكونون تحت رحمة الأفراد الذين صاروا عمالًا وحكامًا؛ لأن هؤلاء الحكام يستطيعون أن يوقعوا بأمرائهم في وقت المحنة إما بمعاكستهم والعمل على كيدهم وإما بعدم طاعتهم، ولا يكون من السهل على الأمير في تلك الأحوال أن يحكم حكمًا مطلقًا؛ لأن أفراد الشعب اعتادوا أن يأتمروا بأوامر الحكام، فيبقى الأمير في الأوقات الخطرة في حاجة إلى رجال يُعوِّل عليهم ويثق بهم، ومثل هذا الأمير لا يمكنه أن يُعوِّل على ما يراه في وقت السلم عندما يكون الأمر في حاجة إلى النظام الحكومي؛ لأن الناس تكون في عصر الأمن مملوءة بالوعود العذبة ومتأهبين للحوادث فدًى للأمير ما دام الموت بعيدًا والخطر غير محدق، فإذا جاءت الشدة واحتاج النظام الحكومي إلى الأمة فلا يجد الأمير إلا القليل، ومثل هذه التجربة خطرة؛ لأنها لا تعاد، فالواجب على الأمير العاقل هو أن يبحث على الدوام عن الوسائل التي تجعل رعاياه في حاجة إلى حكمه، فإذا كانوا دوامًا في تلك الحاجة استطاع أن يُعوِّل عليهم وقت الشدة.

الفصل العاشر

كيف تقاس قوى الحكومات؟

من الضروري عند البحث في أحوال الإمارات النظر فيما إذا كان الأمير يمكنه أن يحمي نفسه في وقت الخطر بمفرده، أو هو يحتاج في حمايته لغيره؟ ولأجل زيادة البيان أقول: إنني أعتبر الأمير قادرًا على حماية نفسه بنفسه إذا استطاع في وقت الخطر بكثرة رجاله ووفرة ماله حشد جيش كافٍ لمقاومة أي عدو يعرض له، وأعتبر الأمير محتاجًا إلى حماية غيره إذا كان وقت الخطر يحتمي وراء حصونه، ويدفع عدوه ولا يهاجمه، وقد تكلمنا قليلًا عن الحال الأولى، وسنتكلم عليها عندما تسنح الفرصة.

أما الحال الثانية فلا حاجة للأمير بها إلا لتحصين مدينته فيقويها، ويخزن بها ما يحتاج إليه وقت الحصار دون أن يهتم ببقية البلاد، فإذا فعل ذلك وكان حاصلًا على رضى الشعب فهيهات أن يحدق به الخطر؛ لأن أعداءه يترددون في مهاجمته ومعاداته ما دام في حصن حصين، وما دام شعبه يحبه؛ لأنهم يرون في مهاجمته أخطارًا وعقبات يصعب الخلاص منها، ونضرب لذلك مثلًا مدن «ألمانيا»؛ فإنها بلاد متمتعة بالحرية، وهي تطيع الإمبراطور عندما تريد ولا تخشاه ولا سواه من الملوك؛ وسبب ذلك أن تلك المدن محصنة تحصينًا يرهب الأعداء المهاجمين، فلديها ما يكفيها من الأسلحة والحصون والمدافع، وفي المخازن العامة من الطعام والشراب ما يكفي عامًا، وللحصول على رضى الطبقات النازلة من الأمة بدون خسار يعود على الجمهور تراها مستعدة على الدوام لتشغيل تلك الطبقات مدة عام في الأعمال التي تقوم بها حياة المدينة، ثم إن التدريب الحربي لا يزال بها محترمًا، وهناك من القوانين ما يرجى معه بقاء هذا الاحترام، فالأمير الذي يحصن مدينته وينال رضى الشعب لا يمكن أن يهاجم، فإذا هوجم فإن المهاجِم يضطر للتقهقر مخذولًا؛ لأن التحول نظام كل شيء في الوجود، ويستحيل على أي محارب أن يبقى عامًا محاصِرًا بلدًا، فإذا اعترض علينا أحد بأن

الشعب المحاصَر إذا رأى أملاكه الكائنة خارج المدينة معرضة للتدمير والإحراق، ورأى في مصلحته الذاتية التسليم نسي أميره.

فأجيب على ذلك بأن الأمير الشجاع يستطيع على الدوام أن يقاوم مثل تلك الصعوبات البسيطة بأن يملأ قلوبهم بأمل الخلاص القريب تارة، وبتخويفهم من قسوة العدو الفاتح طورًا، وبالحصول على ثقة من يراهم أشد جسارة من غيرهم، ثم إن العدو القادم لا يُبقي طويلًا على ما يملكه أهل البلد خارجها، فإنه يحرق ويدمر لدى وصوله ما تصل إليه يده، وعند ذلك يكون الشعب المحاصَر لا يزال ظاهر الحمية والتحمس، فإذا هدأ تحمسهم لا يكون هناك وجه للخوف على أمتعتهم فقد سبق تدميرها، فتصبح حاجتهم للاتحاد مع الأمير كبيرة؛ لأنه يظهر لهم أنه مدين لهم بعد أن أهلكت بيوتهم ودمرت أمتعتهم في سبيل الدفاع عن أميرهم، وفي طبيعة البشر عادة الارتباط بالمنافع، ولذا فلا يصعب على أمير شجاع أن يحفظ حمية شعبه في أوائل وأثناء الحصار إذا كان لديه ما يكفيه من الرزق والذخيرة.

الفصل الحادي عشر

في الكلام على الإمارات الدينية

سنتكلم الآن عن الإمارات الدينية، فنقول: إن الصعوبات المحيطة بهذه الإمارات موجودة قبل تكوينها، يمكن الحصول عليها إما بالاقتدار وإما بالحظ، ولكن يمكن الاحتفاظ بها بدون أحدهما لأن حفظها يكون بفضل العادات والرسوم الدينية القديمة التي لها من القوة والمزايا ما يسهل البقاء لأمرائها مهما كانت حالهم، ولأمراء تلك الإمارات ملك دون أن يدافعوا عنه، وشعب دون أن يحكموه، وإذا كان الملك بغير دفاع فلا يهاجمه أحد، كذلك إذا كان الشعب بلا حكم فلا يحاول إقلاق راحة الأمير، فيظهر من ذلك أن هذه الإمارات وحدها هي الآمنة الهانئة، وحيث إن هذه الإمارات محكومة بوسائل عليا لا يمكن للعقل أن يدركها، فلن أتكلم عنها بشيء؛ لأنه ما دام الله هو الذي يحفظها، فمن الجنون أن يحاول الإنسان البت في أمرها.

ولكن قد أسأل كيف حدث أن الكنيسة وصلت إلى تلك القوة الدنيوية مع أنها قبل البابا إسكندر السادس كانت غير محترمة في نظر أمراء إيطاليا كبيرهم وصغيرهم، مع أنها الآن قد وصلت قوتها الزمانية إلى درجة استطاعت بها إرهاب ملك فرنسا، وطرده من إيطاليا، وكذلك استطاعت القضاء على أهل البندقية؟ وإن كان كل هذا معروفًا فإنه لا ضرر من إعادته، فإنه قبل دخول «كارلوس» ملك فرنسا إيطاليا كان المتصرفون في أمرها هم أهل البندقية، وملك نابولي ودوق ميلانو وأهل فرنسا، وكان هؤلاء السادة يهتمون بأمرين؛ الأول: أن لا يدخل إيطاليا أجنبي بقوة السلاح. والثاني: أن لا يستطيع أحد من السائدين أن يمد سلطته. وكان الهمُّ الأكبر يرجع إلى أهل البندقية والبابا، فلأجل صد أهل البندقية احتاج الأمر إلى إهلاك السائدين دونها كما حدث في الدفاع عن فرارا، ولأجل رد البابا انتفع الساسة ببارونات «رومة» وكان هؤلاء الأشراف منقسمين إلى حزب «أورسيني» وحزب «كولوناس» وكان الشقاق سائدًا بين الحزبين؛ لذا كانوا

على الدوام مدججين بالسلاح حيال البابا، فتمكنوا بذلك من إضعافه، وكان يظهر من حين إلى آخر بابا قوي العزم مثل «سكستوس» ولكن لم يكن حظه أو اقتداره بكافيين لخلاصه من شر هؤلاء الأشراف؛ وسبب هذا يرجع إلى قصر أعمار الباباوات التي كان متوسطها عشر سنين، فكان يلقى أشد الصعوبات في مقاومة حزب واحد، فإذا تمكن أحد الباباوات من سحق حزب كولوناس جاء بعده بابا مُعادٍ لحزب أورسيني، فيعود كولوناس إلى قوته الأولى، فلا يتمكن البابا الجديد من القضاء عليهم، وقد دعا هذا إلى قلة احترام سلطة البابا الدنيوية في إيطاليا.

ثم جاء «إسكندر السادس» فأظهر للعالم أكثر من غيره من الباباوات كيف يمكن للبابا أن يتغلب بالمال والقوة، فاستعان بالدوق «فالنتين» واتخذه أداة، ولما دخل الفرنساويون إيطاليا فعل كل ما ذكرته عند الكلام عن أعمال هذا الدوق، وإن كان يرمي بما فعله إلى تعظيم الدوق دون الكنيسة فقد انتهى الأمر بتعظيم الكنيسة وتقويتها، فورثت ثمار أعمال الدوق بعد موته، ثم جاء البابا «يوليوس» فألفى الكنيسة قوية مستولية على رومانيا، وقد هلك سائر بارونات رومة، كذلك كان البابا «إسكندر السادس» قد قضى على الأحزاب بقوته، ثم وجد طرقًا كثيرة لتنمية الثروة لم تكن معروفة قبل البابا إسكندر، فلم يكتفِ «يوليوس الثاني» باتباع أعمال الإسكندر بل زاد فيها، وصمم على الحصول على «بولونيا» والقضاء على أهل «البندقية» وطرد الفرنساويين من إيطاليا، وقد نجح في كل تلك الأعمال، وهو جدير بالثناء؛ لأنه عمل ما عمل لتعظيم شأن الكنيسة لا لتعظيم فرد معين، ثم إنه أبقى على حزبي «كولوناس» «وأورسيني» كما وجدهما، وكان بعض الزعماء يحاولون تغيير الحال، ولكن أمرين عاقاهم عن ذلك؛ الأول: قوة الكنيسة، وهذا ما يخشونه. والثاني: حاجتهم إلى تعضيد بعض الكرادلة الذين هم سبب الشغب بين الزعماء. والأحزاب لا يهدأ لها بال ما دام لها كرادلة يحركونها داخل رومة وخارجها، والبارونات مضطرون لحمايتهم، والدفاع عنهم، فينشأ الشغب بين البارونات من مطامع القسيسين، فلما جاء قداسة البابا «ليون العاشر» وجد البابوية في مركز منيع، والمرجو أنه يزيد في رفعتها بفضائله كما قوَّاها أسلافه من البابوات بقوة السيف.

الفصل الثاني عشر

في أنواع المحاربين والجنود المأجورة

بعد الكلام على صفات الإمارات وسبب نجاحها وفشلها، والبحث عن وسائل الحصول عليها والاحتفاظ بها بقي عليَّ الكلام في طرق الهجوم والدفاع المستعملة في تلك الإمارات، سبق لي أن أظهرت ضرورة متانة التأسيس للأمير؛ لأنه بدون ذلك يكون عرضة للفشل، وأهم دعائم الإمارات قديمة كانت أو حديثة هي القوانين العادلة والأسلحة القوية. لا توجد القوانين العادلة حيث لا توجد الأسلحة القوية، ووجود الأسلحة القوية مدعاة لوجود القوانين العادلة، ولن أتكلم الآن عن القوانين، بل سأتكلم عن الأسلحة، فأقول: إن الأسلحة التي يدافع بها أمير عن ملكه إما تكون له وإما تكون لجنود مأجورة، وإما لجنود مساعدة، وإما مختلطة، فالجنود المأجورة والمساعدة خطرة ولا نفع لها، والأمير الذي يحافظ على ملكه بالجنود المأجورة لن يبقى واثقًا من ملكه مطلقًا؛ لأنهم لا يتحدون، وهم فوق ذلك ذوو مطامع لا يخضعون لنظام ولا أمانة لهم، يُظهرون الشجاعة أمام الأصدقاء والجبن حيال الأعداء، وهم لا يخشون الله ولا يحفظون عهد الإنسان، ومن يستعين بهم فأنذره بالفشل، إنما بينه وبين الخسران زمن يطول ويقصر حسب الأحوال، وهم في السلم ينهبونك، وفي الحرب يعرضونك لنهب الأعداء؛ وسبب ذلك أنه لا يوجد في نفوسهم سبب يبقيهم في الميدان أكثر من أجرة زهيدة لا تكفي؛ لأن يعرضوا أنفسهم للموت لأجلك.

وهم مستعدون على الدوام أن يكونوا جندًا لمن يستأجرهم ما دام السلام سائدًا، فإذا جاءت الحرب فإما الفرار وإما الهجر، وكان ينبغي لي أن أكف عن الدلالة على صحة ذلك ما دام خراب إيطاليا في الوقت الحاضر ناشئًا عن استغنائها بالجند المأجورة عن سواهم واعتمادها عليهم دون غيرهم، وكان هؤلاء المأجورون يظهرون الشجاعة بين أنفسهم، فإذا جاء العدو بان ضعفهم.

فقد استولى ملك فرنسا «كارلوس» على إيطاليا دون أدنى مقاومة، والذين قالوا إن ذلك كان راجعًا إلى ذنوبنا صدقوا، ولكن لم تكن الذنوب التي يقصدونها، بل هي الذنوب التي ذكرتها، ولما كانت تلك هي ذنوب الأمراء فقد عوقبوا عليها، وسأسهب في شرح معايب تلك الجنود المأجورة.

إن القباطنة والقواد المأجورة إما يكونون مقتدرين وإما غير ذلك، فإن كانوا مقتدرين فلا تعول عليهم؛ لأنهم ينتفعون بمقدرتهم لتعظيم أنفسهم إما بالضغط عليك وأنت مولاهم، وإما بالضغط على غيرك ضد رغبتك، وإن كانوا غير مقتدرين فلا تنتظرن منهم سوى الخراب.

ورُبَّ معترض يقول: إن هذه هي حال القباطنة مأجورين كانوا أو غير مأجورين، فأرد عليه بأنه إذا كان الجنود غير مأجورين، أي إذا كانوا وطنيين تابعين للبلد المحارب، فإما يكونون في إمارة وإما في جمهورية، فإن كانوا في إمارة فالأمير يتولى بذاته قيادتهم، وإن كانوا في جمهورية فإن حكومة الجمهورية تبعث بالوطنيين الصادقين، فإذا ظهر عدم اقتدار القبطان المبعوث به أمكن تغييره، وإن ظهر اقتداره أمكن إبقاؤه عند حده بالقانون، وقد دلت الخبرة أنه لا يفوز في الحروب إلا الأمراء القائدون والجمهوريات المسلحة.

أما القوى المأجورة فلا تأتي إلا بالفشل، ثم إن الجمهورية المسلحة المحمية بأبنائها يكون خضوعها لرجل منها أصعب من خضوع الجمهورية المحمية بجيش مأجور، وقد كانت رومة «وإسبرطة» لعدة قرون مسلحتين وحرتين وذلك لأن حماتهما كانوا من أبنائهما، أما «قرطاجنة» فقد كانت مضغوطًا عليها بجنودها المأجورة حتى لما كان القواد من أبناء قرطاجنة أنفسهم، وقد رفع أهل «ثيبة» «فيلبش» المقدوني قبطانًا على جيوشهم بعد موت «أبا مينونداس» فلما انتصر سلب حريتهم، كذلك أهل ميلانو لما مات «الدوق فليب» استأجروا «فرنسيسكو سفورزا» ضد أهل البندقية، فلما تغلب على أهل البندقية في موقعة «كارافاجيو» اتحد معهم ليستبد بسادته الذين استأجروه، وكان أبو هذا الرجل جنديًّا في خدمة «جيوفانا» ملكة نابولي، تركها فجأة، وهي غير مسلحة ولا جيش لها، فاضطرت لحماية مُلكها أن تلجأ إلى ملك «أرجون». وإذا ذكر لي أحد أن أهل «فلورنسا» وأهل البندقية استزادوا قوة ووسعوا منطقة سيادتهم بواسطة قواد مأجورة لم يقلبوا لهم ظهر المجن وخدموهم بأمانة. أقول: إن أهل فلورنسا قد خدمهم الحظ، فإن بعض القواد الأشداء الذين كان يخشى بأسهم لم يفتحوا، والبعض

كانت تقابله معارضة شديدة، والبعض اتجهت مطامعه في نواح أخرى، أما القائد الذي لم يفتح فهو «السير جون هوكود» وهذا لا يمكن الحكم عليه بالأمانة؛ لأنه لم يظفر مرة، ولكن كل عارف بخلقه يعترف بأنه لو ظفر مرة لوقعت فلورنسا تحت رحمته، أما سفورزا فقد كان ضده «البريكاتشي» فوجه مطامعه نحو «لومبارديا» و«براشيو» عادى الكنيسة ومملكة نابولي.

ولننظر بعد ذلك إلى ما تلا: فإن أهل فلورنسا عينوا «باولوفيتلي» قبطانًا لهم، وكان حذرًا، بلغ أعلى المراتب بعد أن كان في أحطها، ولو أنه استولى على «بيزا» فلا ينكر أحد أن أهل فلورنسا كانوا يهتمون باستبقاء صداقته؛ لأنه لو قاد جنود أعدائهم ما استطاعوا مقاومته، ولأجل استبقاء صداقته كانوا يضطرون لطاعته.

أما أهل «فيتزيا» فإذا نظرنا إليهم وإلى التقدم الذي أحرزوه يظهر لنا أنهم فازوا وانتصروا طالما كانت القوى المحاربة في صفوفهم مؤلفة من أهل البندقية أنفسهم، وذلك قبل أن يبدءوا بالمحاربة في البر، أما قبل ذلك فإن حروبهم البحرية كانت تتم بواسطة سادة من بينهم ورجال من بلدهم، فلما بدءوا حروب البر اتخذوا عادة أهل إيطاليا، وفي بداية عهد جيوشهم البرية لم يكونوا ليخشوا جانب قوادهم؛ لأن الأراضي التي كانوا يملكونها كانت قليلة وشهرتهم كبيرة، فلما اتسع نطاق ملكهم في عهد «كرمونيولا» ظهر لهم خطأهم، فقد رأوا أنه عظيم القوى بعد أن هزم دوق «ميلانو» ثم عرفوا أنه لم يكن شديد الهمة في الحروب وعلموا أنهم لن يتمكنوا من فتوح كثيرة بواسطته، ولم يكونوا يريدون أن يتخلوا عنه خشية أن يفقدوا ما كسبوا، فاضطروا لقتله ليتحققوا أنهم أمنوا جانبه، ثم اتخذوا لهم قباطنة «بارتولوميو» و«أبرجامو» و«روبرتودا سان سفرينو» والكونت «دي بتليانو» وغيرهم، وكان أهل البندقية يخشون ما يعود عليهم من الخسران بواسطة هؤلاء القواد، ولا يخافون عاقبة النصر، وحدث لهم بعد ذلك في «فايلا» أنهم فقدوا في يوم واحد ما قضوا في الحصول عليه ثمانمائة سنة؛ لأن هذه القوى المأجورة تفوز بانتصارات صغيرة، ولكنها تفقد خسائر جمة، وسأتكلم الآن بإسهاب عن تلك الجنود المأجورة بعد أن ضربت الأمثال بالقواد الذين استأجرتهم حكومات إيطاليا.

كانت إيطاليا منذ بداية عهد انحلال نفوذ الإمبراطورية وسيادة البابوية منقسمة إلى عدة حكومات، وقد حملت جملة من المدن الكبرى السلاح في وجه أشرافها الذين كانوا مستولين عليها بفضل تعضيد البابا، وساعدت الكنيسة تلك المدن في فِتَنها لتزداد

قوتها الدنيوية، وفي مدن كثيرة صار أحد أبناء البلد أميرًا، فوقعت إيطاليا في أيدي الكنيسة وفي أيدي بعض الجمهوريات الفتية، ولما كان القسيسون والجمهوريون غير متعودين حمل السلاح بدءوا باستئجار الجند الأجانب، وأول من اشتهر بين هؤلاء الجند «البرجيودا كوبو» أحد أبناء الرومانيا، وقد تخرج عليه «براشيو» و«سفورزا» اللذان صارا يومًا ما صاحبي الشان في إيطاليا، ثم جاء بعد هؤلاء كل القواد الذين قادوا جنود إيطاليا، وكانت ثمار شجاعتهم دخول «كارلوس» وافتراس «لويس» واستبداد «فرناندو» وتعدي أهل سويسرا، وكانت الخطة التي يتبعها هؤلاء القواد المأجورون هي أن يعظموا من شأن أنفسهم بتحقير المشاة، وقد فعلوا ذلك لأنه لم يكن لهم وطن، وكانوا يعيشون من كسبهم، ولم يكن قليل من المشاة ليزيد شهرتهم وهم لا يستطيعون أن يقتنوا عددًا وافرًا من المشاة؛ لذا اكتفوا بالخيالة التي تُدفع لها أجور عالية وتُكرم مهما قل عدد رجالها، فكان لا يوجد في جيش مركب من عشرين ألف جندي ألفان من المشاة، وكانوا كذلك لا يخاطرون بأنفسهم ولا يكلفون ذواتهم أو جنودهم أقل مشقة، ولا يسفكون دماء بعضهم بعضًا في الحرب، بل يأخذون من بعضهم أسرى الحرب بدون قتل ولا ضرب، ولم يكونوا يهاجمون الحصون ليلًا، كذلك أهل الحصون منهم لم يتعودوا مهاجمة الخيام ليلًا، ولم يتخذوا الخنادق، ولم يحفروا الحفائر حول المعسكرات، وكانوا يأبون نزول الميدان في فصل الشتاء، وكل هذه القواعد كانت مقبولة لديهم ومقررة في قوانينهم، وبها نزلوا بإيطاليا إلى أسفل الدركات.

الفصل الثالث عشر

الكلام في الجنود المعضدة والمختلطة والأصيلة

الجنود المساعدة تُكوِّن النوع الثاني من القوى غير النافعة، وهي التي يدعوها الأمير لتعضيد جيشه، كما وقع في العهد الأخير «ليوليوس الثاني» الذي رأى فشل جنوده المأجورة في حرب «فرارا» فاضطر للاستعانة بالجنود المعضدة، فاتفق مع «فراندو» ملك إسبانيا على أن يساعده بجنوده.

إن الجنود المساعدة قد تكون حسنة في ذاتها، ولكنها على الدوام خطرة لمن يستعيرها؛ لأنهم إن خسروا هزمت، وإن انتصروا وقعت أسيرهم، وإن كان التاريخ القديم مفعمًا بالأمثال، فإنني لن أتخلى عن ضرب المثل بما وقع للبابا «يوليوس الثاني»؛ لأنه لا يزال قريبًا من الأذهان، فإنه اتبع أبعد الخطط عن الحكمة إذ أراد أن يأخذ «فرارا» فوضع نفسه في يد أجنبي، ولكن حسن حظه أسعفه، فلم يجن ثمار سوء اختياره، فإنه لدى هزيمة جنوده المساعدين في «رافنا» قام أهل سويسرا وطردوا المنتصرين، وهذا ما لم يكن ينتظره هو أو سواه، فنجا ولم يقع أسيرًا في يد العدو الفائز الذي اضطر للفرار أمام الجنود السويسرية، ولم يقع في يد جنوده المساعدين الذين تم لهم الفتح على أيدي غيرهم.

وكان أهل فلورنسا بغير جيش، فاستأجروا ١٠٠٠٠ فرنسيًّا ليهاجموا بيزا، واقتحموا بذلك خطرًا لم يقتحموا من قبل مثله، كذلك إمبراطور القسطنطينية وضع ١٠٠٠٠ جنديًّا من الأتراك في بلاد اليونان ليقاوموهم فلم يقبلوا أن ينسحبوا بعد الحرب،

ومن هذا التاريخ بدأ وقوع بلاد اليونان في يد «الأتراك»، فمن لا يريد أن يفتح بلادًا عليه باستعمال هؤلاء الجنود التي خطرها أعظم من خطر المأجورة؛ لأن الخراب الذي يجلبونه كامل؛ إذ هم متحدون فيما بينهم ويطيعون غيرك، أما الجنود المأجورة فإنها إن فازت تحتاج إلى زمن طويل وفرصة سانحة للإيقاع بالذي استأجرها؛ لعدم اتحادها، ولأنك تنقدها أجرها، خطر الجنود المأجورة هو في جبنها واتقائها الحرب والأعمال الثقيلة، أما خطر الجنود المساعدة فهو في شجاعتها، والأمير العاقل يتجنب دائمًا هذه القوى الأجنبية ولا ينتفع إلا بجنوده، ويفضل أن ينهزم بجنوده على أن ينتصر بجنود غيره، وإنني هنا أضرب مثل «سيزار بورجيا»؛ فإن هذا الدوق دخل رومانيا بجنود مساعدة معظمها من الفرنسيس، واستولى بواسطتها على «إيمولا» و«فورلي»، فلما ظهر له خطرهم لجأ إلى الجنود المأجورة واستأجر «أورسيني» و«فيتلي»، فعرف بعد الخبرة عدم أمانة هؤلاء وخطرهم، فاستغنى عنهم بجنوده.

والفرق بين الأنواع الثلاثة ظاهر لمن يعلم شهرة الدوق؛ إذ كان يقود المساعدة ثم المأجورة ثم جنوده معولًا على سيفه ورجاله، وما تمت شهرته ولم يبلغ أعظم مراتب الشهرة والاعتبار إلا عندما علم القاصي والداني أنه لا يُعوِّل إلا على مهنده ورجاله، وكنت أود أن أضرب الأمثال من تاريخ إيطاليا الحديث، ولكنني لا أستطيع الغض عن ذكر «هيرودا سيراقصة» الذي سبق ذكره، فإنه لما تأكد عدم نفع الجنود المأجورة، وأراد الخلاص منهم ولكنه خشيهم، أمر بهم فمُزِّقوا إربًا ثم حارب بجنوده، كذلك نذكر عن التوراة ما يؤيد ذلك، فإن «داود» لما عرض عليه «شاول» أن يذهب لمحاربة «جوليات» زعيم فلسطين أراد شاول تشجيعه فقلده سلاحه، فلما جربه «داود» قال إنه لا يستطيع المحاربة به كما يود، وإنه يفضل مقلاعه وخنجره، وبالجملة فإن أسلحة غيرك إما تقع من يدك وإما تثقل كاهلك وإما تعوقك، فإن «كارل الثامن» أبا «لويس الحادي عشر» ملك فرنسا فاز بشجاعته وحسن حظه بتحرير فرنسا من ظلم الإنجليز، وقد علم ضرورة المقاومة بأسلحته الخاصة، فأسس في بلاده نظام الجيش والمشاة. فلما خلَفه ولده لويس استغنى عن المشاة، وبدأ باستئجار جنود من سويسرا وتبعه خلفاؤه، فكانت النتيجة الخطر الذي يتهدد الآن تلك المملكة؛ فإن فرنسا ساعدت جنود سويسرا على الظهور، وكسرت قلوب جنودها بالاستغناء عن المشاة وبتعيير المحاربين الباقين باحتياجهم إلى مساعدة الأجانب، فإن المحاربين الفرنسيين إذا تعودوا الاستعانة بأهل سويسرا يعلق بذهنهم أنهم لا يستطيعون الحرب برمتهم، وينتج عن ذلك أن

جنود فرنسا أضعف من أن يقاوموا جنود سويسرا، وأعجز من أن يقوموا بأنفسهم ضد سواهم دون تعضيد جنود سويسرا، وهكذا ترى جنود فرنسا نوعًا مختلطًا، بعضها مأجور وبعضها وطني، ومع عيوب هذا الجند فإنه أفضل من المأجورة أو المساعدة، ولكن أقل بكثير من الجنود الوطنية.

الفصل الرابع عشر

واجبات الأمير نحو الجند المحارب

لا ينبغي للأمير أن يكون له مقصد أو فكر أو يُعنى بدرس أمر سوى الحرب ونظامها وترتيبها؛ لأنها الصنعة الوحيدة الضرورية للذي يأمر وينهى، وفائدتها في أنها تحفظ ملك من يولد أميرًا، وترفع إلى مرتبة الأمراء بعض الناس من الطبقات الأخرى، وقد رأينا أن الأمراء الذين يفكرون في الرفاهية أكثر من التفكير في الحرب يفقدون إمارتهم، والسبب الذي يُفقد الأمراء ممالكهم هو احتقارهم الحرب، ووسيلة الحصول عليها هي التبحر في علوم الحرب.

وصل «فرنسيسكو سفورزا» بحسن تسلحه إلى الحصول على دوقية ميلانو بعد أن كان فردًا عاديًّا، ثم إن أولاده أرادوا أن يتقوا الحروب والمتاعب، فسقطوا من مقام الدوقية إلى طبقات الأمة، وأضف إلى الشرور الكثيرة الناتجة عن عدم تسلح الأمير احتقار الناس له؛ لأنه لا يستوي المتسلحون وغير المتسلحين، ولا يُعقل أن رجلًا مسلحًا يطيع بسهولة آخر غير مسلح، أو أن أعزل يأمن الحياة بين قوم مسلحين؛ لأن المسلح يبقى محتقرًا، والأعزل يبقى خائفًا حذرًا، وبذا لا يستطيعان أن يعملا باتفاق ووئام.

ثم إن الأمير الجاهل بفنون الحرب لا يكون محترمًا من جنده ولا يأمن جانبهم، فلا يليق بأمير أن يتخلى فكره لحظة عن علم الحرب، وينبغي له أن يمارس الحرب في السلم أكثر من سواها، وذلك بوسيلتين؛ الأولى العمل. والثانية الدرس. أما العمل فهو أن يستبقي جنوده مسلحين مستعدين، وأن يمارس الصيد لِيُعوِّد بدنه المتاعب، وليقف على طبيعة الأراضي، وكيف يكون ارتفاع الجبال ومهابط الوديان، ويعلم أنواع الأنهر والمستنقعات، وكيف يكون تأثير عبورها، ولهذه المعرفة فائدتان؛ الأولى: أنه يعرف بلاده، فيعرف كيف يذود عن حوضها، ثم إنه إذا عرف طبيعة أرضه علم طبائع غيرها من الأراضي بطريق القياس التقريبي، والأمير الذي لا يعرف هذا يكون علمه ناقصًا

في أهم فروعه؛ لأن هذه المعرفة تعلمه كيف يلقى العدو، وكيف يتخذ لجنده معسكرًا، وكيف يقود الجند، ويعد المسير، ويحتل الأماكن القوية، ومن دواعي ثناء الكُتَّاب على «فيلبومن» أمير «آشاي» أنه كان في زمن السلم لا يفكر إلا في الحرب، ولما كان يكون في الفلاة مع أصحابه يقف ويسألهم: إذا كان العدو على هذا التل وكنا نحن هنا بجنودنا، فأيُّنا يكون حصين المركز؟ وكيف يمكننا الدنو منه محافظين على نظامنا؟ وإذا أردنا التقهقر فماذا ينبغي لنا فعله؟ وإذا تقهقر عدونا فكيف نطارده؟ وكان يسألهم عن كل ما يمكن حدوثه للجيش المحارب، ويسمع آراءهم، ويبدي آراءه مشفوعة بالحجج، بحيث لم يعرض له في حروبه موقف لم يكن عرف له من قبل حلًّا نافعًا.

أما تدريب العقل فلا يكون إلا بدرس تاريخ العظماء والإمعان في أسباب عظمتهم، والنظر في وصف الوقائع والبحث عن أسباب النصر وأسباب الخذلان؛ لاتباع الأولى واتقاء الثانية، وفوق هذا كله اقتفاء أثر رجل عظيم اشتهر في قديم الزمان كما فعل كثير من المشاهير الذين اتخذوا الأعمال العظيمة قدوة لهم، ينسجون على منوالها ويسيرون في دربها، فقد زعموا أن «الإسكندر» قلد «آخيل» وأن «قيصر» قلد الإسكندر وأن «سيبيو» قلد «سيرس»، ومن يقرأ تاريخ سيرس الذي كتبه «زينوفون» يرَ كيف أن سيبيو قلده في العفة ولين الجانب وحب الإنسانية والكرام.

فالأمير العاقل ينبغي له أن يسير في مثل هذه الطريق، وأن لا يخلد إلى السكينة وقت السلم، بل يعمل بحيث يستطيع أن ينتفع بالوقت، فيجني في الحرب ثمار عمله وقت السلم، وإذا تحول الحظ ألفاه مستعدًّا لاتقاء ضرباته.

الفصل الخامس عشر

الكلام فيما تُمدح به الرجال أو تُذمُّ

بقي الآن أن ننظر في القواعد والطرق التي يسلكها الأمير نحو رعيته وأصدقائه، وحيث إنه كتب كثيرون في هذه المسألة فإنني أخشى أن أُنسب إلى الادعاء لا سيما وأن رأيي يخالف آراءهم، إن قصدي تدوين ما ينفع الذين يتبصرون، فالأفضل لي أن أقول الحق دون أن أحوم حول الخيال.

تصور كثيرون إمارات وجمهوريات لا وجود لها في الحقيقة؛ لأن الفرق شاسع بين حياتنا الواقعية وبين حياتنا المرئية بعين النمط الأسمى، فمن يهمل ما هو كائن لأجل ما ينبغي أن يكون يجلب على نفسه الخراب العاجل، من يريد أن يكون خيِّرًا في سلوكه مع الجميع فلا بد أن يعض بنان الندم إذا وقع في أيدي الأشرار، إذن فينبغي للأمير الذي يريد أن يحفظ عرشه أن يتعلم كيف يقلل من طيبته، وكيف يستعمل الخير أو ضده في الأوقات والأحوال المناسبة، وإذ تركت جانبًا ما يتعلق بسلوك أمراء الخيال أقول للأمراء الحقيقيين: إن الرجال إذا ذكروا — لا سيما أصحاب المناصب الرفيعة منهم كالأمراء — فلا يذكر عنهم إلا ما يمدحون عليه أو ضده، فيقال عن أحدهم إنه كريم وعن آخر ضنين، وإن أحدهم لين الجانب والثاني جشع، وعن واحد إنه قاسٍ والآخر رحيم، وإن واحدًا لا يحفظ عهدًا والآخر أمين، وعن واحد إنه مخنث وجبان وعن الآخر إنه قاسٍ قوي الجنان، وواحد محب للإنسانية وآخر ذو كبرياء، وواحد مندفع في شهواته وعن الآخر إنه عفيف، وعن واحد إنه صعب المراس وعن الآخر إنه هين، وعن واحد إنه ثابت ميال للجد، وعن الآخر إنه مهذار طائش، وعن واحد إنه مؤمن وعن الآخر إنه جاحد، إلى آخر ما هناك من المناقب الممدوحة والمعايب المذمومة.

لا ريب في أن كل إنسان يود أن يتصف الأمير بكل الصفات الفاضلة التي سبق ذكرها، ولكن حيث إن تلك الفضائل كلها لا يمكن التحلي بها جميعًا ولا يمكن تَصَنُّعُها؛

لأن الطبيعة البشرية لا تطيق ذلك، فمن الضروري للأمير أن يكون من الحذر على جانب عظيم يستطيع به اتقاء عار المعائب التي قد يُضيِّع بها الدولة، أما المعايب التي هي أقل من الأولى فليحترس وليحافظ على سمعته ما استطاع من أن تدنس بذكرها.

ويجب عليه أن لا يخشى عار المعايب التي يصعب عليه بدونها الاحتفاظ بالملك؛ لأن الإنسان إذا أمعن النظر رأى أن كثيرًا من الأمور التي تظهر له أنها فضائل قد تؤدي به إلى الخراب إذا اتبعها، وكثيرًا مما يبدو كأنه من الرذائل قد يؤدي إلى الخير والسلامة.

الفصل السادس عشر

في الكرم والبخل

سأبحث الآن في الفضائل التي ذكرتها في الفصل السابق بالإجمال، فأقول: إنه من الأمور الحسنة أن يذاع عن الأمير كرمه، ولكن الكرم إذا استعمل بحيث يصير الأمير لا يُخشى فإنه يضر، ولكن إذا استعمل الكرم في الشئون التي خلق لها بصفته فضيلة فإنه لا يجلب على صاحبه عار الرذيلة المضادة، أما الأمير الذي يريد الاشتهار بالكرم فلا يمكنه التخلي عن كل مظاهر الفخفخة بحيث يهلك كل ما يملك، ثم يضطر في نهاية الأمر إذا أراد أن يحتفظ بصيته أن يثقل كاهل شعبه بالضرائب، ثم يصير مغتصِبًا سلَّابًا نهَّابًا، يرضى بكل شيء لأجل الحصول على المال، وهذا يُبَغِّض فيه أمته، ويقلل من احترامه لدى فقره، ويكون قد نفع نفرًا قليلًا ببذخه وأضر بكثيرين، فيبقى مركزه في حرج، ويحدق به الخطر لأقل حادثة، فإذا فطن إلى ذلك قبل الهلاك وأراد أن يغير خطته اتهموه لساعته بالبخل والشح، فالأمير الذي لا يستطيع أن يمارس فضيلة الكرم بدون خطر يلحقه إذا عُرفت عنه فلا حرج عليه إذا كان حذرًا من أن يوصف بالبخل، وسوف يُعرف عنه بمرور الأيام أنه كريم عندما يظهر أنه بِشُحِّه استطاع أن يزيد في ثروته ليستعين بها في الدفاع عن دولته وقت الحرب، أو أن يقوم بأعمال عظيمة دون إثقال كاهل شعبه، فهو لا شك يكون كريمًا نحو كل من لم يأخذ منهم شيئًا، وهؤلاء كثيرون ولا يحصون، وقد يُعدُّ بخيلا نحو من لم يعطهم شيئًا وهؤلاء أقل من القليل.

إننا في عصرنا هذا لم نرَ عملًا عظيمًا إلا عمن اتصفوا بالبخل، أما غيرهم فقد خربوا أنفسهم، فإن البابا «يوليوس» الثاني اشتهر بالكرم ليبلغ مقام البابوية، فلما وصل إليه لم يرد أن يحتفظ بشهرة السخاء لتسهل عليه محاربة ملك «فرنسا» وقد حارب كثيرًا دون أن يفرض على الناس ضرائب جديدة؛ لأن زمن البخل عوض عليه ما فقده في فترة البذل، و«ملك إسبانيا» الحالي لو كان متصفًا بالكرم ما كان هُيِّئ له أن

يفوز في الحروب التي أقامها؛ لأجل هذا لا ينبغي للملك أن يهتم باتهامه بالبخل إذا كان يريد أن لا يسرق شعبه، ويدافع عن نفسه وقت الشدة، وأن لا يصير فقيرًا محتقرًا، وأن لا يصاب بالجشع، فإن رذيلة البخل من الرذائل التي تسهل له الاحتفاظ بالسلطة.

إذا قيل إن «يوليوس قيصر» بلغ السلطان بالكرم، وإن غيره من الأمراء وصلوا إلى السيادة لجودهم أو لاشتهارهم بالسخاء، فأقول إما تكون أميرًا وإما ستئول الإمارة إليك، فإن كنت أميرًا فاعلم أن السخاء مضر، وإن كنت في طريق الإمارة، فالكرم ضروري للوصول، وقد كان قيصر طامعًا في سيادة رومة، فلو عاش بعد بلوغه، ولم يعتدل في النفقة فإنه لا شك كان يفقد الملك ويخرب الدولة.

ولو اعترض أحد بأن كثيرين من الأمراء قاموا بأعمال كبيرة وكانوا كرامًا للدرجة القصوى، فأقول: إن الأمير إما ينفق ثروته وثروة شعبه، وإما ينفق ثروة غيره، ففي الحال الأولى ينبغي له أن يكون محاسبًا حذرًا، وفي الحال الثانية ينبغي له أن يكون كريمًا وهَّابًا؛ فإن هذا النوع الأخير من الكرم ضروري للأمير الذي يسير بجيشه ويعيش بالسلب والنهب؛ لأنه إن لم يكن كريمًا يأبى الجيش أن يتبعه، ثم إن الكرم في هذه الحال لا يضرُّ بك؛ لأنك تنفق مال غيرك كما فعل «سيروس» و«قيصر» و«الإسكندر» وإنفاق مال الغير لا يقلل من اعتبارك بل يزيده، إنما إنفاق أموالك هو وحده الذي يؤذيك.

لا توجد خلة مهلكة لذاتها أشد من الكرم؛ لأنك بممارستها تفقد القدرة على ممارستها، فإما تصير فقيرًا مرذَّلًا وإما تفر من الفقر إلى الجشع والاغتصاب وتصير مذمومًا مكروهًا، والكرم هو الذي يقودك إلى أحد هذين الخطرين، انتساب الإنسان للبخل أقرب إلى الحكمة؛ لأنه يجلب العار ولا يجلب البغضاء، وهو أفضل من الاتصاف بالجشع الجالب للدمار والبغضاء جميعًا.

الفصل السابع عشر

الكلام في القسوة واللين والمقارنة بين محبة الناس للأمير وخوفهم منه

كل أمير يود أن يكون معروفًا بالرأفة دون القسوة، ولكن ينبغي له أن لا يسيء استعمال الرأفة، كان سيزار بورجيا معتبرًا قاسيًا، ولكن قسوته سكنت رومانيا ووحَّدتها وجلبت إليها السلام والأمن، فإن كانت هذه الثمار نافعة فلا شك أننا نعتبره أكثر رحمة من أهل فلورنسا الذين أرادوا اتقاء الاتصاف بالقسوة، فأمروا بتدمير «ببشتويا» فالأمير لا يخشى أن يتصف بالقسوة في سبيل توحيد شعبه؛ لأن قسوته تكون أشد رحمة من الأمراء الذين يتمادون في اللين ويسمحون بالقلاقل التي تجلب القتل والسلب، وهذه تصيب الشعب كله، أما قسوة الأمير فلا تصيب إلا فردًا أو أفرادًا.

ولا يستطيع الأمير الجديد أن يتقي التعيير بالقسوة؛ لأن الإمارات الجديدة مملوءة بالمخاطر، وقد التمس «فرجيل» «لديدو» عذرًا على قسوتها لحداثة عهدها بالملك بقوله:

> Res dura. Et regni novitas me talia cogunt Moliri. Et late fines custode tueri.

ومع هذا فينبغي للأمير أن يكون حذرًا في التصديق والفعل، وأن لا يكون بذاته داعية للوجل، وأن يعمل باعتدال ورحمة فلا يفقد الحذر بشدته، ولا يصير من القسوة بحيث لا يُحتمل، ومن هذا ينشأ سؤال مهم، وهو أيهما أنفع للأمير أن يُحَبَّ أكثر مما يُخشى، أم يُهاب أكثر مما يُحب؟ فالجواب أنه ينبغي أن يكون محبوبًا مهابًا، وحيث يصعب الجمع بين الحالتين، فإذا احتاج الأمير لإحداهما فالأفضل أن يُهاب؛ لأنه يحق القول عن الناس عامة أنهم ينكرون الجميل، سريعو التحول، مختلفو الطبائع والغرائز، ميالون لاتقاء الأخطار، ومحبون للكسب، وما دمت تنفعهم فهم لك، ويهبونك

دمهم ومتاعهم وحياتهم وبنيهم ما دام الخطر بعيدًا، فإذا أحدق ثاروا عليك، والأمير الذي يعوِّل على وعودهم دون أن يتأهب للحوادث فعاقبته الخراب؛ لأن الصداقة التي تُشرى لا تؤمن عاقبتها، وقد يكون عدمها أفضل منها، ثم إن الناس أسرع إلى إساءة مَن يحبون منهم إلى إساءة من يرهبون؛ لأن الحب قائم على نفعهم الذاتي، فإذا انتهى هذا النفع ذهب الحب، أما الخوف فأساسه العقاب، ورهبة العقاب لا تزول مطلقًا.

وينبغي للأمير أن يعمل؛ لأن يُخشى بحيث إذا لم يفز بالحب فهو يتقي البغضاء؛ لأن الخوف وعدم البغض يمكن الجمع بينهما لمن لا يتداخل في ملك رعيته أو في شئون نسوتهم، ومَن إذا اضطر لإعدام واحد منهم لا يفعل ذلك إلا إذا كان هناك سبب كافٍ ظاهر، ويجب عليه قبل كل شيء أن لا يعتدي على ملك الغير؛ لأن الناس أسرع إلى نسيان مقتل آبائهم منهم إلى نسيان ما لحق بأملاكهم وأمتعتهم من الخراب والاغتصاب، ثم إن أسباب الاغتصاب كثيرة الحدوث، بخلاف أسباب الإعدام فإنها نادرة، أما إذا كان الأمير يقود جيشًا قويًّا فمن الضروري له أن يُعرف بالقسوة؛ لأنه بدونها لا يستطيع أن يحافظ على اتحاد جيشه وطاعته.

بين الصفات الكبرى التي تحلى بها «هنيبال» أنه كان يقود جيشًا عرمرمًا مكونًا من خليط من سائر الأمم، وكان هذا الجيش يحارب في أرض غريبة، ومع ذلك كله فلم يحدث أنه وقع خلاف أو شقاق في صفوفه لدى الفوز أو الهزيمة، ولم يكن لهذا سبب سوى قسوته التي خرجت عن حدود الطبيعة الإنسانية مضافة إلى فضائله الأخرى، فكان على الدوام محترمًا مهابًا في نظر جنوده، ولم تكن فضائله وحدها لتنتج ذلك الأثر، وكان «سيبيو» ذا فضائل شتى ولم يكن قاسيًا، فتمردت عليه الجنود في إسبانيا؛ لأنه كان رحيمًا بهم، يعطيهم من الحرية ما لا يعطيهم إياه غيره، وقد لامه على ذلك «فابيوس مكسيموس» بمجلس السناتو، وسماه «مفسد المحاربة الرومانية» وقال عنه آخر في المجلس: «إن في العالم رجالًا كثيرين يعرفون كيف يكون اتقاء الزلل أكثر مما يعرفون كيف يصححون خطأ غيرهم» وكان هذا تلميحًا إلى إهمال سيبيو عقاب ضابط وقح أهلك اللورسي، فلم ينتقم لهم سيبيو، ولم يعاقب الضابط على سوء فعله، ولو كانت شهرة سيبيو باللين لعهد الإمبراطورية لفقد صيته وسلطته، ولكن ذيوع تلك الشهرة لعهد السناتو كان سببًا في تكريمه.

وأقول في الختام: إن الناس تحب وتبغض بإرادتهم، ولكنهم يهابون الأمير بإرادته، والأمير الحازم ينبغي له أن يُعَوِّل على ما في قدرته لا على ما في قدرة الغير، وكل ما يجب عليه هو أن يتقي بغض الناس له.

الفصل الثامن عشر

كيف يكون وفاء الأمراء!

لا يخفى على أحد ما يلحق بالأمراء من الثناء إذا اشتهروا بحفظ الوعود ومراعاة العهود، ولكن تجارب زماننا هذا دلت على أن الأمراء الذين لم يراعوا العهود قاموا بأعمال كبيرة، وتمكنوا من تحيير أوهام الناس بمكرهم، وتغلبوا في نهاية الأمر على الأمراء الذين اتخذوا الأمانة عادة والوفاء أساسًا لحياتهم.

اعلم أنه توجد طريقان للحرب: الأولى بالقانون، والثانية بالقوة، فالأولى طريق البشر، والثانية طريق الوحوش، وحيث إن الطريق الأولى لا تكون على الدوام كافية فيضطر الإنسان للالتجاء للثانية، فمن الضروري إذن معرفة طريقي محاربة الإنسان والحيوان، وقد شرح هذا للأمراء من سبق من الكتاب والمؤرخين، فقد رووا أن «آخيل» وغيره من الأمراء تولى أمر تدريبهم «شيرون» وهو مخلوق نصفه إنسان ونصفه حيوان، فدربهم وهذبهم، وقد أراد الكتَّاب بذلك رمزًا معناه أن الأمير محتاج إلى استعمال الطبيعتين، وأن طبيعة دون أخرى لا نفع ولا بقاء لها، فالأمير مضطر للتطبع بطبع الحيوان فيقلد الأسد والثعلب؛ لأن الأسد لا يستطيع أن يحمي ذاته مما يرمى له من الحبائل، والثعلب لا يستطيع أن يتقي الذئاب، لذا ينبغي للأمير أن يكون ثعلبًا ليتقي الحفائر والحبائل، وأسدًا ليرهب الذئاب، أما من يريد أن يكون أسدًا فقط فلا أمل له في النجاة، لأجل هذا لا ينبغي للأمير الحذر أن يحفظ العهود إذا كانت ضد مصلحته، وما دامت الأسباب التي دعت للوعد قد انقضى عهدها، إذا كان الناس كلهم أخيارًا فإن القاعدة التي ذكرتها تكون لا شك سيئة، ولكنهم أشرار ولن يحفظوا لك عهدًا، فلست مضطرًّا لحفظ عهودهم.

ثم إن الأمير لا يفقد حيلة شرعية يركن إليها إذا لم يفِ بوعده، وأن الأمثال في هذا الباب كثيرة تثبت أن السلم قد تزعزع مرارًا، وأن الوعود قد نُسيت تكرارًا بأمراء لا

وفاء لهم، وإن الذين استطاعوا من الأمراء تقليد الثعلب قد فازوا وانتصروا، ولكن من الضروري أن يُخفي الرجل هذه الخليقة، وأن يكون ماهرًا في فن التظاهر بغير شعوره، ثم إن الناس من البساطة بمكان وهم أصحاب حاجات، وصاحبها أرعن مطيع، فلا يعدَم الخادع فريسته.[١]

وسأكتفي بذكر مثل واحد من التاريخ الحديث، فإن «إسكندر السادس» لم يفعل في حياته شيئًا سوى خداع الرجال، ولم يكن يفكر في غير ذلك، وقد وفق إلى الحذق فيه، فلم يكن مثله رجل قادرًا على تأكيد الأقوال وتثبيتها والوعد بالإنجاز، ولم يكن كذلك أحد مثله أقل وفاء لما وعد به، ومع ذلك فإنه فاز على الدوام في خداعه؛ لأنه عرف طبيعة البشر، فليس من الضروري للأمير أن يتصف حقيقة بكل الفضائل التي سبق الكلام عليها، ولكن من الضروري أن يُذاع عنه الاتصاف بها، وإنني أجسر فأقول: إن الاتصاف بكل تلك الفضائل خطر، ولكن الظهور بالتحلي بها نافع، إنه من الخير لك أن تظهر بالتقوى والأمانة وحب الإنسانية والدين والإخلاص، وأن تكون في الواقع كذلك، ولكن ينبغي أن تكون متنبهًا بحيث إذا اضطررت للتحول إلى الصفات الأخرى كان ذلك بدون مشقة.

وينبغي العلم بأن الأمير — لا سيما الحديث — لا يمكنه ممارسة كل تلك الخلال الموصوفة بالحسن لدى الرجال؛ لأنه يكون في أغلب الأحيان مضطرًّا للاحتفاظ بالملك، فيعمل ضد الإيمان والإحسان والإنسانية والدين، لذا ينبغي أن يكون له عقل سهل التحول والانتقال حسبما يقتضيه تقلب الأحوال، وأن لا يترك صنع الخير ما استطاع، وأن يكون قادرًا على صنع الشر إذا احتاج لذلك.

وينبغي للأمير أن لا يحرك لسانه بكلمة لا تدل على أنه مُتحلٍّ بالخلال الخمس السالفة الذكر، فلا يرى فيه الرائي ولا يسمع منه السامع إلا الأمانة والعفة والتقوى وحب الإنسانية، وأهم تلك الصفات صفة التقوى؛ لأن الرجال يحكمون عادة بالنظر لا بالخبرة، وكل الناس ترى فيك مظاهرك، وقليلون يلمسون حقيقتك، وهؤلاء القليلون لا يستطيعون أن يقاوموا الكثيرين المحتمين بسلطة الأمير، فليعش الأمير وليحافظ على عرشه دون النظر في الوسائل، فإنها ستبقى على الدوام معتبرة شريفة، يمدحها الكل؛ لأن العامة مأخوذون بالظواهر وبنتائج الأشياء، والعالم لا يشمل إلا العامة، والقليلون

[١] إن فرائصنا ترتعد لدى قراءة هذه النبذة والتي سبقتها (المُعرِّب).

من الخاصة لا يظهرون إلا عندما يضل الكثيرون، إن أحد الأمراء المعاصرين — نفضل أن لا نذكره — لا هم له إلا الثناء على السلم والأمانة، ولكنه في الواقع عدو شديد لهما، ولو أنه راعى أحدهما لفقد ملكه وخسر نفسه.[٢]

[٢] يقصد فردناند دي كاستيل ملك إسبانيا.

الفصل التاسع عشر

في اتقاء البغض والاحتقار

يُبغِّض الرعية في الأمير جشعه واغتصابه مالهم ونساءهم، فإذا حفظ متاع الرعية ولم يتعرض لعرضها عاش المجموع آمنًا قانعًا، وإذا عارض قليلون، فإنه يستطيع أن يوقفهم عن حدهم بعدة طرق، وقد يصير الأمير مرذولًا إذا اشتهر بالتغير والخفة والتخنث والخوف، وعدم الثبات وضعف العزيمة، فينبغي للملك أن يتقي هذه المعائب اتقاء الملَّاح صخرًا خطرًا، أما فيما يتعلق بحكم الرعية فليكن حكمه غير قابل للنقض، وليبقَ مصممًا على ما عزم عليه بحيث لا يستطيع أحد خداعه أو إقناعه بالتغير، فإذا اشتهر مثل هذا الرأي عن الأمير عجز الأفراد عن التآمر ضده في الداخل، ولا يستطيع عدو أن يهاجمه من الخارج لعلمه بما له من المكانة في قلوب الرعية، إن للأمير نوعين من الخوف: الأول داخلي وهو خوفه من الرعية. والثاني خارجي وهو خوفه من القوى الأجنبية. وفي تلك الحال يستطيع الدفاع عن نفسه بالجيوش المنظمة والأسلحة المدربة، وبذا تبقى شئونه الداخلية هادئة إذا لم تقلقها المؤامرات، فإذا حاولت قوة أجنبية إحداث فتنة داخلية فإنه لا شك يستطيع مقاومة سائر الصدمات لو اتبع في حكمه وعيشته القواعد التي سبق الكلام عليها، كما كانت حال «نابيش» أمير «إسبرطة».

أما الرعية فإنه يخشى من تآمرهم في الداخل إذا لم تسعَ قوة أجنبية في ذلك، وليس لاتقاء هذا إلا أن يبتعد الأمير عن مواطن البغض والاحتقار وأن ينال رضى الشعب، وأنجع ترياق لسم المؤامرات هو الحصول على حب عامة الشعب؛ لأن المتآمرين يعتقدون أنهم إذا قتلوا الأمير إنما يُفرحون الشعب، فإذا علموا بحب الشعب للأمير ابتعدوا عن التآمر؛ لأن قتله لا يفرح الشعب بل يغمه، وقد دلت الخبرة على تعدد المؤامرات، ولكن قليلًا منها قد نجح؛ لأن المتآمر لا يمكنه أن يتآمر بمفرده، ولا يمكنه اتخاذ الرفاق إلا بين الفئة غير الراضية، فإذا شرحت قصدك لناقم ووجد فيه طريقًا

للوصول لغرضه، لاعتقاده بأن الوشاية تبلغه ما يريد، فيضع ربحه إذا وشى في كفة، وفي كفة أخرى خسرانه إذا أطاعك لعلمه بما يحيط بالمتآمرين من المصاعب والأخطار، فلا يصدقك إلا إذا كان عدوًّا لدودًا للأمير أو صديقًا لك حميمًا، وإلا فهو لا يرى في جانبك إلا الخوف والغيرة والريبة وخشية العقاب، ويرى في جانب الأمير سلطة الحكومة والقانون وحماية الأصدقاء والدولة، فإذا أضيف إلى ذلك حب الشعب، فهيهات أن يحاول أحد الإيقاع بالملك؛ لأن خشية المتآمر على الملك المبغوض تكون على الدوام قبل إنجاز عمله، ولكن في حال حب الشعب للملك فهو يخشى بعد الإنجاز؛ لأنه يكتسب عداء الشعب، ولا يجد له بعد ذلك ملجأ، وإن الأمثلة على ذلك كثيرة، ولكنني أكتفي هنا بذكر مثل واحد يذكره آباؤنا، فقد قتل المستر «إينبال بنتيفوجلي» أمير بولونيا في مؤامرة دبرها ضده «الكانيش» ولم يترك وراءه أقارب سوى «المستر جيوفاني» الذي كان طفلًا، وكان إينبال محبوبًا من الشعب، فقام الشعب وقتل الكانيش، وقد بلغ حب الشعب لأسرة بنتيفوجلي أنهم سمعوا بوجود أحد فروعها في فلورنسا كان قبل معروفًا بأنه ابن حداد، فسعوا إليه وجاءوا به، ونصبوه رئيسًا للحكومة إلى أن شب جيوفاني وتولى الملك؛ فينتج من هذا أن الأمير لا ينبغي له أن تقلقه المؤامرات إذا كان الشعب ميالًا إليه، أما إذا كان الشعب يبغضه فإنه إذن جدير بأن يخشى كل إنسان وكل شيء.

وقد تعلمت الحكومات المنتظمة والأمراء العقلاء أن لا يلحقوا بالأمة القنوط، وأن يرضوا الشعب ويقنعوه؛ لأن هذه من المسائل التي يهتم بها الأمراء، وبين الممالك المنظمة والمحكومة حكمًا جيدًا لعهدنا هذا مملكة فرنسا، ففيها نظامات كثيرة مرتكزة عليها حرية الملك وضمانه، ومن هذه النظامات «مجلس البرلمان» وسلطته؛ لأن من أسس هذه الدولة كان يعرف مطامع كبار الأشراف وَقِحَتَهُمْ، وكان عالمًا بضرورة سد أفواههم باللهى، وكان كذلك يعرف بغض العامة للخاصة بغضًا قائمًا على الخوف، ولكونه كان يرغب في الحصول على رضى العامة، فلم يرد أن يجعل عناية الملك خاصة بهذا لئلَّا يسخط عليه الأشراف لشدة اهتمامه بالعامة، أو يسخط العامة لشدة اهتمامه بالأشراف، فأوجد قاضيًا ثالثًا همه إيقاف الأشراف عند حدهم وإرضاء العامة، ولم يكن هناك أحسن من هذه السياسة ولا أحكم من هذا النظام لضمان سلامة الملك والمملكة وهو البرلمان؛ وينشأ عن هذا نتيجة أخرى وهي أن الواجب على الأمراء أن يكلوا إلى غيرهم القيام بالواجبات التي لا ترضي الرعية، وأن يختصوا بالأعمال التي ترضيها، فالواجب على الأمير أن يحترم أشرافه دون أن يحصل على بغض الأمة، ولكن قد يظهر للبعض

أن تاريخ بعض إمبراطرة الرومان يخالف رأيي؛ لأن بعضهم عاشوا بشرف وأظهروا قوة الخلق، ولكنهم فقدوا الملك أو قتلتهم الرعية بمؤامرة، ولرغبتي في الإجابة على هذا الاعتراض سأنظر في صفات بعض هؤلاء الإمبراطرة لأظهر أن سبب خرابهم لم يكن مخالفًا لما ذكرت، وكذلك سأنظر في الأمور التي تلفت نظر من يطالع تاريخ الأزمان، وسأكتفي بذكر الإمبراطرة الذين تولوا على الإمبراطورية من عهد «ماركوس» الحكيم إلى عهد «مكسيمنس» وهم «ماركوس» وولده «كومودس» و«برتنكس» و«هليوجابلوس» و«الإسكندر» و«ماكسيمنوس».

فأول ما ألاحظه هو أن جميع الأمراء كانوا لا يجدون حيالهم سوى مطامع الأشراف ووقاحة العامة، أما إمبراطرة الرومان فقد كانت حيالهم عقبة ثالثة، وهي احتمال قسوة وبخل الجنود، وهي عقبة لا يستهان بها؛ لأنها سببت سقوط كثيرين، وذلك لاستحالة إرضاء الشعب والجندية؛ لأن الشعب يحب الهدوء، ولذا يحب الأمراء المسالمين، أما الجند فيحبون الأمراء المحاربين الوقحاء القساة الطغاة، ويرغبون أن يمارس الإمبراطور تلك الصفات ليذل الشعب وليحصلوا على أمواله، فحدث أن الإمبراطرة الذين لم يستطيعوا إرضاء الطرفين سقطوا، والذين بلغوا منهم العرش على حداثتهم علقوا آمالهم بالجند، ووقفوا عنايتهم على الجيش، وكان هؤلاء مضطرين لتفضيل أحد الجانبين؛ لأنهم لم يكونوا يستطيعون إلا أن يكونوا مكروهين من أحد الجانبين، فكان واجبهم الأول أن لا يُبْغَضوا من الشعب، فإذا لم يوفقوا إلى ذلك فليبذلوا ما في وسعهم لاتقاء بغض الأحزاب القوية، ولذا كان الإمبراطرة المحدثون محتاجين للإفراط في الإحسان، وفضلوا محاباة الجيش على محاباة الأمة، وكانت نتيجة تلك المحاباة تابعة على الدوام لاقتدار الملك على حفظ كرامته في نظر الجند.

ونتج عن هذه الأسباب أن ماركوس وبرتنكس والإسكندر الذين كانوا جميعًا متواضعين ومحبين للعدل وأعداء للقسوة وذوي عطف على الإنسانية، خُتمت حياتهم ختامًا سيئًا، سوى ماركوس الذي عاش ومات مكرمًا؛ لأنه تربع في عرش الدولة بحق الوراثة، ولم يكن مدينًا بالملك للجند أو للشعب، وعدا عن ذلك فإنه كان ذا فضائل شتى جعلته موقرًا في نظر الجميع، وكان ما دام حيًّا واضعًا كل حزب في مكانه، ولم يكن أحد يبغضه أو يحتقره، أما «برتنكس» فقد وصل إلى العرش دون رغبة الجند الذين تعودوا عيش الفساد والرذيلة لعهد «كومودس» فلم يريدوا أن يخلدوا إلى حياة الفضيلة والقناعة التي أرادها لهم برتنكس، فكان الجند يبغضه، ثم إنه كان محتقَرًا لكبر سنه،

ولذا لم يوشك عهده أن يبتدئ حتى انتهى؛ ومن هذا يظهر أن العداء قد ينشأ عن فعل الخير كما ينشأ عن فعل الشر، فالأمير الذي يريد الاحتفاظ بالإمارة يرى نفسه مضطرًّا مرارًا لفعل الشر؛ لأنه إذا فسد الحزب الذي يُعوِّل عليه الأمير فهو مضطر لفعل ما يرضيه، وفي هذه الحال يكون فعل الخير مضرًّا جالبًا للأذى.

ولنتكلم الآن عن الإسكندر الذي بلغت طيبته أنه خلال الأربع عشرة سنة التي دام فيها حكمه لم يُعدم فرد بدون محاكمة عادلة، فإن هذا الإمبراطور كان موصومًا بالتخنث والضعف، بحيث ترك أمه تحكم فوقع في هوة الاحتقار، فتآمر الجيش عليه وقتلوه، أما إذا نظرنا الآن إلى صفات كومودس و«سفرس» و«أنطونيوس» و«قرقلا» و«ماكسيموس» نرى أنهم كانوا في منتهى الشدة والطغيان، ولم يكونوا يمتنعون عن أي أذى ينالون به الشعب إرضاء لشهوات الجندية، وقد انتهت حياتهم انتهاء سيئًا ما عدا «سفرس» فإنه حفظ صداقة الجند، وتمكن من التفرغ للحكم بالظلم، ولكن فضائله بهرت أبصار الجانبين، فكان الجند يحترمونه وهم قانعون به، والشعب معجبًا بخصاله السامية، ولما كانت أعمال هذا الإمبراطور تظهر لأول وهلة كبيرة لمن يعرف حداثة عهده بالملك، فقد أردت أن أُظهر كيف عرف سر الانتفاع بصفتي الثعلب والأسد، فإنه عرف الإمبراطور جوليان إذ كان هو قائدًا للجيش في «سلافونيا» فأقنع الجنود بفائدة المسير إلى رومة للانتقام لدم «برتنكس» الذي قتله الحرس الإمبراطوري، ودخل إيطاليا بهذه العلة دون أن يذيع أغراضه الكامنة في صدره، فلما بلغ رومة أدخل الرعب في قلوب أعضاء مجلس السناتو فانتخبوه إمبراطورًا، ومات «جوليان» ولكن بقي أمام «سفرس» عقبتان قبل التمكن من السيادة التامة على الإمبراطورية الأولى في آسيا، حيث أعلن «نيجرنيوس» زعيم الجيش الآسيوي سيادته ونصب نفسه إمبراطورًا، والأخرى في الغرب ومنشأها «ألبينوس» الذي كان طامعًا في الإمبراطورية، ولما أن رأى الخطر إذا أظهر عداوة لهذين الرجلين، عزم على مهاجمة «نيجرنيوس» ومخاتلة «ألبينوس» فكتب إليه أن السناتو انتخبه لعرش الإمبراطورية، وأنه يود أن يقاسمه هذا الشرف، ثم بعث إليه بلقب قيصر، وطلب من السناتو أن يعلن انتخاب الاثنين إمبراطورين لرومة، فصدَّق ألبينوس تلك الحيلة، ثم إن سفرس هزم نيجرنيوس وقتله واستتب له الأمر في الشرق وعاد إلى رومة، فأعلن في مجلس السناتو أن ألبينوس قد نسي فضله عليه ولم يرعَ أياديه البيضاء التي منحته تاج الإمبراطور، وأنه تآمر على قتله فهو مضطر للذهاب إليه ليعاقبه على سوء فعله ونكرانه للمعروف، ثم ذهب للقائه في فرنسا، وهناك

نزع عنه الرفعة واختطف حياته، ومن يتأمل في هذه الوقائع يرَ أن سيفرس كان أسدًا غضنفرًا وثعلبًا مخاتلًا، لذا كان مهابًا لدى الشعب غير مكروه لدى الجند؛ لذا طال ملكه وخف عنه حمل أعباء السلطنة، أما ولده «أنطونينس» فقد كان كذلك ذا كفاية عظمى، وكانت له صفات جعلته موضع الإعجاب في نظر الشعب ومحبوبًا لدى الجيش؛ لأنه كان محاربًا قادرًا على احتمال أشد الشدائد، محتقرًا للمآكل الممتعة ولسائر أنواع الترف، وهذه خلال تحبب الجند في الرئيس، بَيْدَ أنَّ قسوته وتوحشه لم يكن لهما مثيل، فإنه بعد أن أمر بقتل كثيرين أمر بإعدام جزء عظيم من أهل رومة والإسكندرية، فأبغضه كل من حوله، وخشيه أقرب الناس إليه، حتى قتله أحد جنده وهو في وسط الجيش، وينتج عن هذا أن هذا النوع من القتل الصادر عن تصميم فرد وصحة عزمه لا يمكن للأمراء اتقاءه؛ لأن كل من لا يخشى الردى يمكنه أن يقتل الغير، ولكن ليس على الأمراء خطر شديد من هذا، فإن مثل هذه الفعال نادر جدًّا، والواجب على الأمير أن لا ينال أحدًا ممن ينتفع بهم أو ممن في خدمته بأذى شديد، كما فعل أنطونينس الذي قتل جنديًّا، وأبقى على أخيه، وبقي يهدده كل يوم بالقتل، ومع هذا أبقى عليه في صفوف حرسه، فجنى عاقبة إهماله وعدم تبصره.

ولنتكلم الآن عن «كومودوس» الذي كان يمكنه الاحتفاظ بالإمبراطورية لبلوغه العرش بحق الإرث؛ لكونه ابن «ماركوس» ولو أنه اقتفى آثار أبيه لأرضى الشعب والجيش، فنقول: إنه كان ذا مزاج قاسٍ بهيمي، فإنه أراد أن يسلي الجند بافتراس الشعب، ثم إنه لم يحفظ كرامته الذاتية، فكان ينزل إلى «ساحة المصارعة» ليصارع الأسرى وغيرهم، فأصبح مرذولًا في عين الجند ومبغوضًا لدى الشعب، فتآمروا عليه وقتلوه.

وبقي لدينا الكلام على «مكسيمنيوس» فقد كان محاربًا من الدرجة الأولى بين المحاربين، وكان الجند سئموا تخنث «الإسكندر» واستكانته، فانتخبوه إمبراطورًا بعده، ولكن عهده لم يطل؛ لأن أمرين جعلاه مبغوضًا محتقرًا؛ الأول: دناءة أصله، فقد نشأ راعيًا في «ثراسيا» وكان هذا معلومًا لدى العامة فسبب احتقاره. والثاني: أنه في أول عهده أجَّل الذهاب إلى رومة للاستيلاء على العرش. ثم إنه اشتهر بالقسوة فكان يأمر عماله ووكلاءه بإتيان الفظائع في الولايات، فهاج ذلك سخط العالم أجمع، فأجمعوا على إسقاطه، فتمردت عليه أفريقيا، ثم تلاها مجلس السناتو ورومة وسائر إيطاليا، وانضم إليها جيشه؛ لما أعياه حصار «أكويليا» ولما رأى الجند كثرة أعداء الإمبراطور لم يهابوا عاقبة الإيقاع به، فتآمروا عليه وقتلوه.

وسأترك الكلام على «هليوجابلوس» و«ماركينوس» و«جوليانو» لأنهم كانوا محتقرين جدًّا ولم يطل عهدهم، وسأختم هذا الفصل بأن أقول: إن الأمراء لعهدنا لا يجدون حيالهم صعوبة إرضاء الجيش في حكوماتهم إرضاء زائدًا عن الحد؛ لأنه وإن كان الأمراء مضطرين لاحترام الجيش إلا أن الجيوش لعهدنا غير مرتبطة بالحكومة ارتباط جيوش الرومان بإدارة شئون الإمبراطورية الرومانية، وقد كان من المحتم على الإمبراطور إرضاء الجيش أكثر من إرضاء الشعب؛ لأن الجيش كان يقدر أن يفعل أكثر من الشعب، أما الآن فإن واجب الأمراء هو إرضاء الشعب أكثر من إرضاء الجيش؛ لأن الشعب يفعل أكثر من فعل الجيش إلا في دولة الترك، وقد استثنيت الترك؛ لأن حول الأمير اثني عشر ألف من المشاة، وخمسة عشر ألف من الخيالة، قد علق عليهم سلامة ملكه وثبات سلطانه، فمن الضروري له أن يفضل رضاهم على رضى الشعب.[1]

كذلك الحال في مملكة «سلضان»؛ لأن الحكومة هناك في يد الجند والسلضان مضطر للاحتفاظ بصداقتهم، وهذه الحال مخالفة لأحوال سائر الأمراء؛ لأن حكومته تشبه حكومة البابا الذي ليس ملك موروث ولا محدث؛ لأن أولاد الأمير المتوفى لا يخلفونه، إنما خليفته هو الذي ينتخبه الأقوياء في الدولة، وحيث إن هذا النظام قديم فلا يمكن أن تسمى حكومة السلضان مملكة جديدة؛ فليس فيها من الصعوبات ما يعترض الممالك الجديدة، وحيث إن الأمير جديد فإن نظامات المملكة موضوعة بحيث يكون الأمير المنتخب في موقف الأمير الوراثي.

ولنعد الآن إلى موضوعنا فنقول: إن من يمعن النظر في الأدلة السابقة يرى أن البغض والاحتقار جميعًا أو أحدهما سبب سقوط الإمبراطرة الذين سبق الكلام عليهم، وإن بعضهم كان ختامه حسنًا والبعض ختامه سيئًا، ولما كان «برتنكس» و«الإسكندر» كلاهما أميرين محدثين، فقد كان من المضر بهما تقليد «ماركوس» الذي كان أميرًا وراثيًّا، كذلك أخطأ «قرقلا» و«كومودوس» و«مكسيمينوس» بتقليد «سيفروس» لأنهم كانوا عاجزين عن اقتفاء آثاره، فالأمير الجديد ينبغي له أن يتخذ عن «سيفروس» القواعد المهمة في تأسيس الدولة، وعن «ماركوس» القواعد التي يمكن بها الاحتفاظ بالدولة بعد تأسيسها.

[1] ما أشد مرارة هذا القول حيال الحوادث الحاضرة ١٩١٢ (المُعرِّب).

الفصل العشرون

الكلام في منافع الحصون وأضرارها

لأجل أن يأمن الأمراء على ملكهم تراهم يلجئون لطرق شتى، منهم من نزعوا سلاح رعاياهم، وبعضهم قسم الملك إلى ولايات شتى، وبعضهم سبب عداء الشعب له، وبعضهم حاول جذب من ارتاب في إخلاصهم في أول عهده، وبعضهم شاد الحصون وبعضهم خربها، وحيث إن المجال لا يسع الكلام بإسهاب عن كل تلك المسائل، فسأقول بإجمال ما يعنُّ لي عنها: لم يُعرف عن أمير جديد أنه نزع سلاح رعيته، بل بالعكس فإنه إذا وجدها عزلاء سلحها؛ لأنه بتسليحها تصبح الأسلحة له، ومن كان غير مخلص له أخلص، ومن كان مخلصًا يبقى على إخلاصه، ومن كان في عداد الرعية يصبح في عداد الأنصار.

وحيث إنه لا يمكن تسليح الرعية كلها فإن انتفاع الأمير بالمسلحين يضمن له السيادة على العزل، فإن المسلحين يزداد تعلقهم بك، ويعذرك من بقوا عزلًا ظنًّا بأن المسلحين أكثر كفاية منهم، ولكنك إذا نزعت سلاح رعيتك فهذا بداية هوانهم؛ لأن فيه وصمة الجبن أو الخيانة، وهذا يسبب عداءهم لك وبغضهم إياك.

وحيث إنه لا يمكن للأمير أن يبقى بدون جيش فهو يضطر لاستخدام الجنود المأجورة التي سبق الكلام على قدرها، ولو فرضنا قدرتها فإنها لا شك تعجز عن حمايتك من عدو قوي وشعب مرتاب، ولكن التاريخ يثبت أن الأمراء المحدثين يسلحون رعيتهم دوامًا، وإذا حصل الأمير على ولاية جديدة بجانب إمارته القديمة فمن الضروري عليه إذن نزع السلاح من هذه الولاية الجديدة عدا الذين عضدوه في الحصول على الولايات الجديدة من أهلها، وهؤلاء كذلك ينبغي للأمير عند سنوح الفرصة أن يضعفهم ويخنثهم بحيث تصبح القوة المحاربة في الولايات الجديدة في أيدي جنودك المقيمين بجوارك في إمارتك.

كان أجدادنا العقلاء يقولون: إن «بيستويا» يتمكن منها بالانقسام وبيزا بالحصون، فكانوا يسببون القلاقل بين أهل بعض المدن الخاضعة لهم ليتمكنوا منها تمام التمكن، وقد كانت هذه السياسة «التفريق للسيادة» صالحة في الزمن الغابر، إذ كانت إيطاليا مقسمة تقسيمًا عادلًا، ولكن لا يظهر حسنها في هذا الزمن؛ لأن مثل هذه الانقسامات لا يعود على أحد بالنفع، بل نتيجته معكوسة؛ لأنه إذا قرب العدو من بلد انضم إليه الحزب الضعيف فيسقط الحزب القوي، وقد اتخذ أهل البندقية تلك السياسة في البلاد التي كانت خاضعة لحكمهم، فكانوا يشجعون حزبي «جولف» و«غبلين» دون أن يمكنوا الحزبين من المحاربة، واستطاعوا بذلك من إشغال أهل المدن عن مقاومتهم وألهوهم بمشاكلهم الذاتية، ولكن هذه السياسة لم تُجْدهم نفعًا كثيرًا، فإنه بعد هزيمة «فايلا» تشجع فريق من الرعية واستولوا على سائر الولاية، ثم إن مثل هذه الطريقة تدل على ضعف الأمير؛ لأن الحكومات القوية لا تسمح بمثل تلك الانقسامات التي لا تفيد إلا في وقت السلم؛ لأنه بواسطتها يمكن للحاكم أن يحكم رعاياه، فإذا جاء الحرب يظهر حالًا خرق تلك السياسة.

إنما يعظم الأمراء عندما يتغلبون على العقبات ويقمعون المعارضة، لذا كان الحظ الحسن إذا أسعف أميرًا غير وراثي خلق له أعداء، ويرغمه على محاربتهم فيقهرهم، وبذا يصل إلى ذروة المجد على أعناق أعدائه، لذا يوجد كثيرون يرون أن الأمير العاقل ينبغي له — إذا سنحت الفرصة — أن يسبب عداوة ما ليرتفع قدره بالتغلب على عدوه، وقد وجد الأمراء — لا سيما المحدثون منهم — أمانة وثقة في الرجال الذين ارتابوا فيهم لأول عهدهم أكثر مما وجدوا فيمن ائتمنوهم لأول وهلة، فإن «باندولفو بتروتشي» أمير سينا استعمل على ولايته من ارتاب فيهم، ولكن لا يمكننا الإسهاب في هذا البحث، وأكتفي بالقول بأن الرجال الذين كانوا في أول عهد الحكم أعداء لكونهم في حاجة إلى تعضيد الأمير لتثبيت مواقفهم، فقد سهل عليه بذلك الاستيلاء عليهم، وتزداد غيرتهم في العمل ليمحوا من ذهن الأمير ما علق به في أول الأمر من الارتياب فيهم، فينتفع بهم أكثر من انتفاعه بمن يخدمونه بإخلاص ويكتفون بإخلاصهم عن خدمة مصلحته.

وإني أذكر الأمير الذي استولى على ولايته بمساعدة سرية من أهلها، أن ينظر في السبب الذي دعاهم إلى ذلك، فإن كان غير حبهم الطبيعي له كأن كان ذلك لسخطهم على الحكم القديم، فإنه سيلاقي الصعاب في الحصول على صداقتهم؛ لأن مثل هؤلاء لا يرضيهم شيء مطلقًا، وقد دلت خبرة التاريخ القديم والحديث على أنه أسهل على الأمير

القائم أن يحصل على صداقة الشعب الذي كان راضيًا بالحال السابقة، وكانوا بذلك أعداء له في أول الأمر من الحصول على صداقة الشعب الذي كان ناقمًا، وصافى الأمير سرًّا وساعده على امتلاك البلد.

تعوَّد الأمراء من قديم الزمان تشييد الحصون للتمكن من أملاكهم وإرهاب العدو المهاجم والالتجاء إليها في وقت الشدة، وإنني أستحسن هذه الطريقة؛ لأنها قديمة العهد، ومع هذا فقد رأينا المستر «نيكولا فيتلي» يهدم حصنين في مدينة «كاستلو» ليسهل له التولي على هذا البلد، كذلك «جويد أوبالدو دوق أربينو» لما عاد إلى وطنه الذي طرده منه سيزار بورجيا هدم سائر الحصون قائلًا: إنه بدونها يمكنه أن يدافع عن الوطن خير دفاع.

ثم استعمل هذه الطريقة أهل «بنتيفولي» لما عادوا إلى «بولونيا» فينتج من هذا أن الحصون قد تكون نافعة أو ضارة حسب أحوال الزمان والمكان، فإذا أفادت في حال فقد تضر في آخر، وهذا هو شكل المسألة: الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من العدو عليه أن يبني حصونًا، أما من يخشى العدو أكثر من شعبه فلا حاجة له بها، فإن برج ميلانو الذي شاده «فرنسيسكو سفورزا» سيجلب على أسرة سفورزا من المتاعب ما لا تجلبه أشد الثورات.

لذلك أحسن الحصون ما كان مشادًا في قلوب الرجال، سُداه المحبة، ولُحمته الإخلاص، فإن الأمير ذا الحصون قد لا ينجو إذا كان الشعب ناقمًا عليه، ولم نرَ في زماننا أن الحصون أفادت سوى «الكونيسة دي فورلي» لدى وفاة زوجها الكونت «جيرولامو»؛ فإنها فرت من وجه الشعب الناقم، ولجأت إلى الحصن ريثما جاءها المدد من ميلانو فاستعادت ملكها، وقد كانت الأحوال لا تسمح بتدخل الأجنبي لتعضيد الشعب ضد الأميرة، ولكن بعد ذلك ذهب نفع تلك الحصون، فإنه لما هاجمها «سيزار بورجيا» وكان الشعب معاديًا لها تألب معه عليها، وكان الأنفع لها قبل هجوم العدو الأجنبي وبعده الحصول على حب الشعب فإنه أمنع الحصون.

ومجمل القول: إن تشييد الحصون وعدمه سيَّان، ولكن اللوم على من يحسبها تحميه لدى سخط الأمة.

الفصل الحادي والعشرون

كيف يبعد صيت الأمير

لا يدعو إلى احترام الأمير واشتهاره شيء أكثر من القيام بأعمال عظيمة، وجعل نفسه مثالًا نادرًا، فلعهدنا هذا يوجد «فردناند داراجون» ملك «إسبانيا» ويمكن أن ننعت إمارته بالحداثة لأنه ارتفع من مركز أمير صغير إلى مكانة أعظم أمير في البلاد النصرانية، وإذا نظرت في أعماله رأيتها كلها عظيمة، وبعضها خارق للعادة، فإنه في أول عهده هاجم غرناطة،[١] وكان هذا العمل هو أساس ملكه، وقد فعل ذلك في أول الأمر وهو هادئ البال دون خشية تداخل غيره في عمله، ثم أشغل أذهان بارونات «كاستيل» في هذا العمل، فلم يكونوا يفكرون إلا في هذه الحرب، ولم يخطر ببالهم أن يقوموا بأعمال جديدة، ولذا كسب قوة أكبر من قوتهم، وشهرة علت على شهرتهم دون أن يشعروا به، واستطاع بمال الكنيسة وشعبه أن يستبقي جيشه، ووضع أساس قوته الحربية بهذه الحرب التي كانت بعد ذلك سببًا في اشتهاره، وعدا عن ذلك فإنه أراد أن يقوم بعمل أعظم تحت ستار الدين.

فلجأ إلى القسوة الدينية، وطرد العرب من مملكتهم بعد أن سلب أملاكهم، وليس يوجد في التاريخ أعجب وأبهر من عمله هذا! ثم إنه للعلة ذاتها هاجم أفريقية وحارب في إيطاليا وفرنسا، فكان على الدوام يفكر في الأعمال الكبرى ويعمل لتحقيقها، وقد حارت لتلك الأعمال عقول شعبه، فبقوا باهتين ينتظرون نتائجها، والمتأمل في هذه الأعمال يرى أنها نتجت بعضها عن بعض، فلم يترك الملك لأحد وقت الإمعان للعمل ضده، ثم إنه مما يعود بالنفع على الأمير أن يعطي مثالًا حسنًا عن نفسه في الإدارة

[١] أي هاجم دولة العرب في الأندلس.

الداخلية كما روي عن مستر «برنابو دي ميلانو» عندما كان أحد الرعية يقوم بعمل عظيم أو يقترف عملًا سيئًا، فيقوم الأمير بمكافأته أو عقابه، وهذا مما يدعو الناس إلى التحدث بأعمال الأمير، وفوق هذا كله فواجب الأمير أن يقوم بأعمال تكسبه شهرة الفخار والعظمة، إن الأمير يُحترم عندما يُعرف عنه أنه إما صديق صادق وإما عدو ثابت؛ لأن هذه السياسة أفضل من البقاء على الحياد؛ لأنه إذا تحارب جاران فإما يعود عليك نفع من انتصار أحدهما وإما لا، وفي كلتا الحالين الأنفع لك أن تُظهر رأيك وتعلن الحرب، فإذا لم تفعل وقعت فريسة الظافر؛ فيسر عدوك المخذول، وبذا تفقد النصير؛ لأن المنصور لا يحب صديقًا مرتابًا في أمره لم يناصره في الشدة، وكذلك المخذول لن يفتح لك صدره؛ لأنك لم تمده بتعضيدك فقد ذهب «أنطيوكوس» إلى إغريقيا، بعثه «إيتولي» ليطرد الرومان، فبعث إلى «آشاي» وأهلها أصدقاء الرومان خطباء ينصحون إليها أن يبقى أهلها على الحياد، ثم إن الرومان أوعزوا إلى آشاي أن يمدوهم بسيوفهم، فعرضت المسألة على مجلس آشاي للمناقشة فيها، وقد تناظر سفراء «أنطيوكوس» وسفراء الرومان فقال سفير الرومان: «أما ما قيل عن عود النفع عليكم إذا لم تتداخلوا في حربنا، فهو أبعد الأشياء عن الصحة؛ لأنكم إن بقيتم على الحياد فستكونون فريسة الظافر» وأنه يحدث على الدوام أن من ليس صديقك يطلب إليك أن تكون على الحياد، كما أن صديقك يطلب منك أن تساعده في الحرب وتناصره، ولذا كان الأمراء ضعاف الرأي يلجئون إلى الحياد للابتعاد عن الخطر الواقع، وهذا يؤدي دوامًا إلى خرابهم، أما إذا أظهر الأمير رأيه، وأعلن الحرب فإنه إذا فاز الذي ناصره لا يمكنه أن يوقع به، وإن كان تحت رحمته؛ لأن الصداقة قد استوثقت عروتها، ولم تصل الدناءة بالرجال إلى الإساءة إلى من أحسنوا إليهم لهذه الدرجة، وإذا فشل من ناصرته فإنه يحميك ويساعدك ما استطاع لذلك سبيلًا فتبقى شريكًا له في حظه الذي إن ساء اليوم فقد يحسن غدًا.

أما في الحال الثانية عندما تكون نتيجة الحرب بين الطرفين لا تنالك، فإنه كذلك أحكم لك أن تناصر أحد الطرفين؛ لأنك تسعى في خراب أحدهما بمساعدة الآخر، وكان الأنفع لهما أن يبقي عليه، فإذا فاز فإنه يبقى تحت رحمتك، ومن المستحيل أنه لا يفوز إذا كنت تساعده، وهنا أذكر أنه لا ينبغي للأمير أن يساعد من هو أقوى منه ليؤذي غيره إلا في حال الضرورة، لأنه إذا فاز بقيت تحت رحمته، وواجب الأمراء هو أن يتقوا جهد طاقتهم الوقوع تحت رحمة الغير.

فإن أهل البندقية اتحدوا مع فرنسا ضد دوق ميلانو، وكان في استطاعتهم الابتعاد عن هذا الاتفاق، وقد نتج عنه خرابهم، ولكن إذا كان اتقاء الاتحاد مستحيلًا مثل ما حدث في حال أهل «فلورنسا» لما هاجم البابا وإسبانيا بلاد «لومبارديا» فالأمير مضطر للاتحاد مع غيره على النمط الذي سبق بيانه، ولا تدعن حكومة تعتقد بسلامة عاقبة السياسة التي اتبعتها بل لتحسبن حساب الخطر في كل شيء؛ فإنه من طبيعة الأشياء استحالة الخلاص من صعوبة دون الوقوع في أخرى، إلا أن الحذر يمكِّن الرجل من التمييز والمقارنة فيختار أخف الضررين، كذلك ينبغي للأمير أن يظهر بمظهر حب العبقرية، وصفات الاقتدار والكفاية بتشريف من يمتازون في الفنون والصنائع، كذلك عليه أن يشجع الصناعات والمتاجر والمشروعات الكبرى، فلا يخشى تاجر أن ينمي تجارته خشية سلب ثروته بعد جمعها، ولا يرهب صانع أن يحسن صنعته لئلا يوضع على كاهله من الضرائب والمكوس ما يعجزه عن العمل والنهوض، بل واجب على الأمير أن يعضد المتاجر والمصانع بالمكافآت ليتنافس الأفراد في رفع شأن الوطن الذي يرجع إليه فضله، والواجب عليه أيضًا إشغال الشعب خلال العام بالمواسم والأعياد، ومخالطة أهل سائر الحرف والصناعات مقدمًا لكلٍّ مثالًا من مجده وحبه للإنسانية.

الفصل الثاني والعشرون

الوزير وكاتم الأسرار

انتخاب وزراء الأمير أمر ذو صعوبة كبرى؛ فإما يكون الوزراء صالحين لعملهم، وإما غير ذلك، وأول حكم يصدره الناظر على عقل الأمير يبنيه على صفات الرجال الذين حوله، فإن كانوا أكفاء وأمناء ثبت عقل الأمير وحكمته، وإن كانوا عكس ذلك كان الضد؛ لأن أول خطأ ارتكبه هو في اختياره السيئ، فإنه لم يعرف إنسان بأن المسر «أنطونيو دافنافرو» كان وزير «بوندلفو بتروتشي» أمير سينا دون أن يمدح هذا الأمير وحذره وتعقله لانتخابه مثل هذا الوزير، فإنه يوجد ثلاثة أنواع من العقول؛ الأول: عقل يفقه الأشياء دون تعضيد من الخارج. والثاني: يفهمها عندما يريها إياه آخر. والنوع الثالث: لا يفهم بذاته ولا بواسطة غيره. فالنوع الأول أعلى العقول، والثاني حسن، والثالث بلا نفع مطلقًا، فإن لم يكن بوندولفو من أصحاب العقل الأول فهو على الأقل من أصحاب العقل الثاني.

كلما كان الرجل قادرًا على الحكم على الأشياء وتمييز الغث من السمين، فإنه إن رأى السيئ والحسن من أعمال وزيره أصلح الأول وترك الثاني، فلا يرى الوزير وسيلة لخداعه ويضطر للإحسان، ولأجل أن يعرف الأمير سر الوزير فله طريقة بسيطة لا تخوِّنه فإن الوزير إذا كان يهتم بذاته أكثر من اهتمامه بالأمير ويقوم بأعمال لنفعه، فإنه لا يصلح وزيرًا أو لا يمكن التعويل عليه؛ لأن من كانت في يده مقاليد الدولة لا ينبغي له أن يفكر في نفسه طرفة عين، بل ينبغي له على الدوام أن يفكر في مصلحة أميره، كذلك يجب على الأمير أن يفكر في مصلحة الوزير ليحصل على أمانته وإخلاصه، فيشرفه ويثريه، ويحسن إليه بالمودة، ويكلفه بالأعمال ذات المسئولية، فلا يطمع في

تشريف الغير ولا في ثروة السِّوى، ثم كذلك يدافع عن حكم الأمير فينفر من الانقلابات، ولا يستسهل عملًا حكوميًّا بدون تعضيد أميره، فإن كانت هذه علاقة الأمراء بالوزراء أمكن لكل منهما أن يُعوِّل على الآخر، وإن اختلَّت تلك العلاقة فلا بد من ختام سيئ لأحد الطرفين.

الفصل الثالث والعشرون

في إقصاء الملقين

إن حواشي الملوك مملوءة بالملقين؛ لأن الإنسان يحب ذاته، وهو يخدع نفسه فيما يتعلق بها، ويصعب اتقاء الإصابة بداء حب الملق، فإن حاول الرجل اتقاءه كان محتقرًا؛ لأنه لا يوجد لاتقاء التمليق سوى طريق واحد، وهو إفهام الناس أنه لا يسوءك أن يقال عنك الحق أمامك، فإذا استطاع كل إنسان أن يقول الحق في وجهك فقد فقدت احترامهم، فالأمير الحذر يتخذ وسيلة أخرى، وهي أن يجعل حوله رجالًا عقلاء، ويجعل لهم حق القول بالصدق فيما يسألهم عنه ليس إلا، وينبغي له حينئذ أن يسألهم عن كل شيء، وأن يعرف آراءهم ثم يمعن النظر في أقوالهم وآرائهم، وعليه أن يسلك مع هؤلاء الرجال سلوكًا يدلهم على أنهم كلما ازدادوا في قول الحق ارتفع قدرهم في نظر الأمير وعلت مكانتهم، وعليه أن لا يسمع من أحد غير هؤلاء الرجال وأن يسير في طريقه بعد التفكير دون الالتفات لما يقال، فإن من يفعل غير ذلك، إما يكون فعله بدون تبصر مدفوعًا بعامل التملق، وإما يبقى ديدنه التحول حسبما يوحي إليه مَن حوله، وعاقبة هذا السلوك عدم الاحترام، وسأضرب لهذا مثلًا حديثًا، فقد روى «بريه لوقا» أحد أتباع «ماكسميليان» الإمبراطور الحالي أن الإمبراطور لم يستشر أحدًا في أمر ما، ومع هذا فإنه لم يتمكن من عمل شيء حسب فكره، وذلك لعدم اتباعه الرأي الذي ذكرته، ولما كان الإمبراطور متكتمًا فهو لا يفاتح أحدًا بما هو عازم عليه ولا ينتصح برأي أحد، كان إذا بدأ في التنفيذ ذاع الأمر وعرفه الكل، فيعارضه من حوله فيعوقونه عن تنفيذ أغراضه، ونتج عن ذلك أنه ينقض اليوم ما أبرمه أمس، ولا يعلم أحد ما ينويه، ولا يمكن التعويل على أفكاره.

إن الأمير يحتاج على الدوام للشورى، وذلك عندما يريد لا عندما يريد غيره، بل يجب عليه أن لا يقبل مشورة أحد إذا لم يكن سأله ذلك، وينبغي له أن يكون كثير

السؤال، حسن الاستماع، صبورًا على القول، يغضب إذا تردد أحد في قول الصدق في حضرته، ومن الخطأ الظن بأن الفضل راجع في حذر الأمير لمن حوله من الرجال، فإن الأمير لا يعرف كيف الانتفاع بالنصيحة والشورى إن لم يكن عاقلًا إلا إذا كان قد وقع في يد يافعة، وترك له تدبير شئونه، فإنه في هذه الحال قد يحكم الأمير حكمًا حسنًا، ولكن الحال لا تطول؛ لأن من يتصرف في شئونه يطمع في الملك ويخلعه،[١] أما الأمير غير العاقل إذا استشار كثيرين فهو لا يستطيع في نهاية الأمر أن يستنتج لذاته رأيًا واحدًا يصلح العمل بمقتضاه؛ لأن كل مشير يفكر في نفعه الذاتي، فلا يستطيع الملك فهم آرائهم ولا إصلاح عيوبهم.

وهذه حال دائمة، فإن الرجال يخدعونك ما لم يضطروا للإخلاص لك؛ فينتج من هذا أن المشورة الحسنة مهما كان مصدرها يجب أن تكون راجعة إلى حذر الأمير لا أن يكون حذر الأمير راجعًا إلى النصيحة الحسنة.

[١] يراجع تاريخ تأسيس دولة صلاح الدين الأيوبي.

الفصل الرابع والعشرون

لماذا فقد أمراء إيطاليا إماراتهم

إن الأمور السابقة الذكر إذا روعيت توطدت أقدام الأمير الحديث العهد، فيبقى كالقديم؛ لأن الأمير الحديث مراقب في أعماله أكثر من الأمير الوراثي، فإذا اعتبرت تلك الخلال فضائل؛ جذب نحوه قلوب الناس، فأخلصوا له أكثر من إخلاصهم لو كان أميرًا قديمًا؛ لأن الناس مأخوذون بالحاضر والواقع أكثر منهم بالماضي أو المتوقع، فإن حسنت حالهم اليوم حمدوا السرى، وتركوا أمس ينعى أهله، وهم يدافعون عن أميرهم جهد طاقتهم ما دام غير موصوم بعيب من العيوب الشائنة، فيكون له بدل المجد مجدان، تأسيس ملك جديد وتحصينه والحصول على صداقة الأنصار، كما أن الأمير الوراثي يكتسب بدل العار عارين لو أنه فقد ملكه.

إذا نظرنا في أحوال الملوك الذين فقدوا إماراتهم في إيطاليا لعهدنا هذا أمثال ملك نابولي ودوق ميلانو وغيرهما، فأول ما يظهر لنا عيب في جيوشهم وهو ما سبق الكلام عليه، ثم إن بعضهم كان الشعب له معاديًا أو الأشراف عنه نافرين، وبدون إحدى هذه العلل الثلاث لا يفقد الملك إذا كان للأمير في ميدان الوغى جيش يحميه.

فإن «فيليب» المقدوني غير والد الإسكندر، وهو الذي قهره «تيتس كونيتس» لم يكن له ملك يضارع ملك رومة أو إغريقيا التي هاجمته، إنما كان محاربًا، وكان يعرف كيف يساس الشعب، ويتأكد من ثقة الأشراف، فتمكن بذلك من الاستمرار في محاربتهما «رومة وإغريقيا» عدة سنين، وإن كان قد فقد في النهاية سلطته على بعض المدن، إلا أنه استبقى ملكه.

فلا ينبغي إذن لأمرائنا الذين فقدوا ملكهم أن يلوموا الزمان، إنما يلومون إهمالهم وتراخيهم؛ لأنهم لم يفطنوا في أوقات السلام إلى إمكان تغير الأحوال، كالبَحَّار الذي لا يحسب في الصحو حسابًا للعاصفة، فلما جاءت المصائب لم يفكروا إلا في الفرار منها

بديلًا من أن يدافعوا عن أنفسهم ظانين أن الشعب سينقم على الفاتحين ويعيدهم، ولا ريب في أن هذه الوسيلة حسنة إذا لم يكن غيرها مستطاعًا، ولكن من الخطأ أن تهمل الوسائل الأخرى طمعًا في تلك الوسيلة؛ لأنه من الجنون أن يرغب الإنسان في السقوط طمعًا في أنه سيلقى من ينتشله، فإن الانتشال ممكن وقوعه إمكان عدمه، ولكنه ليس وسيلة مأمونة العاقبة؛ لأن مثل هذا الدفاع دليل الجبن، ولا ينبغي التعويل عليه، ولا ينفعك إلا الدفاع الذي تعتمد فيه على نفسك واقتدارك.

الفصل الخامس والعشرون

الحظ والإنسان

اعلم أن كثيرين يعتقدون أن حوادث العالم مقيدة بالحظ، وموقوفة على إرادة الله بحيث لا يستطيع البشر مهما بلغ حذرهم تغييرها، وأنه من العبث محاولة اتقاء ما سيكون، والأفضل ترك الأشياء تجري في أَعِنَّتها، وقد تكوَّن هذا الرأي في أذهان الناس لما رأوه من الحوادث التي لم تكن قط لأحد في الحسبان.

وإنني إذا فكرت في بعض تلك الحوادث أراني أميل إلى القول بهذا الرأي أيضًا، ومع هذا فإن إرادتنا لا ينبغي أن تطفأ جذوتها، فإنني أعتقد أن الحظ يدير نصف أعمالنا، وأنه يترك لنا النصف الآخر أو أقل منه لندبره بأنفسنا، وإني أشبه الحظ بالنهر، فإذا هاج أغرق الوديان واقتلع الأشجار وهدم الديار فيفر من وجهه كل إنسان ويخضع له كل شيء، فإذا هدأ هذا النهر أمكن للبشر أن يتقوا هياجه فيقيمون السدود والجسور فإذا هاج فإما ينصرف هياجه مصارف أخرى، وإما لا تكون عاقبته شديدة، وهذه هي حال الحظ الذي يظهر بأسه حيث لم تتخذ نحو شدته وسائل الوقاية، فيحول شره إلى حيث لا يوجد ما يعوقه ويمنعه عن الطغيان، وإذا نظرت إلى إيطاليا التي كانت ميدانًا لحوادث الحظِّ تراها بلا مانع ولا سدٍّ، فلو أنها كانت محمية كفرنسا وألمانيا وإسبانيا، فإن الفيضان ما كان ليغتالها قط، ولو حدث فما كان ليجلب عليها من الخراب ما جلب، وهذا يكفي فيما يتعلق بمعاونة الحظ بوجه عام، ولكن إذا قصرنا البحث على الأفراد رأينا أميرًا يومًا سعيدًا ويومًا شقيًّا بدون أن يكون قد تغير خلقه أو سلوكه، وأنا أعتقد أن هذا ناشئ عن الأسباب التي سبق الكلام عليها بإسهاب، فالأمير الذي يوكل أمره للحظ يهلكه الحظ فيما يريد، كما أن سعادة الأمير وشقاءه مرتبطان بسلوكه حسبما يقتضيه الزمان أو ضد ذلك، فإن الرجال يقصدون بلوغ المجد والغنى بوسائل مختلفة، فمنهم العَجول ومنهم المبطئ، ومنهم اللين ومنهم الشديد، ومنهم

اللطيف ومنهم العنيد، وقد يصل كل منهم إلى غرضه بالدرب الذي سار عليه، وقد نرى حذرَيْن يبلغ أحدهما غايته ولا يبلغها الآخر، ونرى حذرًا ومندفعًا يبلغ كل منهما غايته، وهذا تابع لأحوال الزمان والمكان، قد يكون للحظ النصيب الأوفر في وصول الإنسان لغايته، فإذا بلغ الحذر غايته مرة ثم تغير حظه ولم يغير وسيلته فشل، ويستحيل على الرجال تغيير الوسائل إما بحكم الغريزة أو بحكم العادة، ولذا إذا عرض للحذر وقت يقتضي الإسراع فشل، وإذا استطاع رجل أن يغير خلقه حسبما تقتضيه الأحوال فهيهات أن يتبدل حظه.

وقد كان البابا «يوليوس» مندفعًا وفاز في أعماله لموافقة الأحوال له، انظر إلى الحرب الأولى التي أعلنها على «بولونيا» لحياة «جيوفاني بنتيفولي» فإن أهل البندقية لم يكونوا عنها راضين، لذلك كانت فرنسا وإسبانيا تعارضان فيها، ومع هذا فإن البابا لم يتردد في إشعال نارها بمفرده.

وقد أثرت تلك الهمة في إسبانيا وفي البندقية، الأولى خوفًا والثانية رغبة في الحصول على مملكة نابولي، ثم إن ملك فرنسا أراد أن يوقع بأهل البندقية بمصادقة البابا فلم يستطع أن يحرم البابا من مساعدته بجنده؛ وبذا نجح البابا باندفاعه في إنجاز ما لم يكن في استطاعة أشد الباباوات حذرًا إنجازه؛ لأنه لو انتظر ترتيب كل شيء قبل التحرك من رومة كما كان يفعل أي بابا آخر، فما كان هذا التحرك بواقع أبدًا؛ لأن ملك فرنسا كان لا يعجز عن إيجاد ألف عذر، كما أن الآخرين كانوا يملئون قلب البابا بالمخاوف، وإنني أترك أفعاله الأخرى التي تمت بفوزه لقصر عمره، فإنه لو طال وأدركه الحظ في عمل يقتضي التبصر والحذر فما كان ليفوز؛ لأنه لا يستطيع تغيير وسيلة العمل، فاستنتج أن الحظ يتغير، ووسائل أعمال الرجال لا تتغير، فهم يفوزون طالما وافقت أعمالهم حال الحظ، فإذا خالفوه فشلوا.

وأنا أظن أن الاندفاع أفضل من الحذر والتبصر؛ لأن الحظ أنثى ولا يغلبها إلا من يقهرها بالقوة، وهي تسلم ذاتها للأقوياء المندفعين، وتبخل بحسنها على الباردين والمترددين، وهي ككل أنثى صديقة الشباب لقلة حذره، ولكونه أقسى وأقوى وأجرأ من الشيوخ.

الفصل السادس والعشرون

تخليص وطن ماكيافيلي من يد الأجانب البرابرة

بعد أن نظرت في كل تلك المسائل أقول: إني أفكر فيما إذا لم يكن قد آن الأوان لأمير جديد حذر يدخل نظامًا جديدًا يشرفه وينفع عامة الشعب، ويظهر لي أن الفرصة سانحة، وهذا لاجتماع الأحوال المناسبة مما لم يسبق له مثيل في تاريخنا.

فإذا كان من الضروري لإظهار قوة موسى أسر بني إسرائيل في مصر، ولإظهار عزم «قورش» إذلال «منيديس» للفرس، ولإظهار علو همة «تيصص» تفريق شمل أهل «أثينا» كذلك في هذا الزمان لأجل ظهور نور عبقرية أمير وطني قد اقتضت الحال وقوع بلادنا فيما هي فيه، وأن تكون في أسر أفظع من أسر بني إسرائيل، وتحت ضغط أشد من ضغط الفرس، ومشتتة أكثر من تشتت أبناء أثينا، بدون رئيس وبدون نظام، مقهورة مسلوبة مهانة، وقد قاست كل أنواع الخراب، ولو أنه ظهر بعضهم بمظهر يدعو إلى الأمل كأنه مبعوث من عند الله لإنقاذها، إلا أنه عند ذروة مجده عاكسه الحظ وأوقع به، فبلادنا الآن تكاد تكون ميتة وهي تنتظر أميرًا ينقذ «بومبارديا» من الاغتصاب «وتوسكانيا» من الاعتداء والسلب، ويشفي إيطاليا كلها من أدوائها، ويضمد جراحها الدامية.

انظر إلى بلادنا وهي تدعو الله أن يرسل إليها من ينقذها مما فيه، انظر إليها وهي تتأهب للمسير خلف أي علم يرفع للدفاع عنها، وليس لها الآن أمل إلا أن تكون أسرتك الكريمة على رأسها لإنقاذها، فإن أسرتكم قد رفعها الحظ والقوة وحباها الله وخلفاؤه، ولن يكون هذا العمل عليك صعبًا إذا أعدت على ذهنك أسماء وأفعال من ذكرت من الأمراء، وإن كانت أعمال هؤلاء الرجال مدهشة؛ لأنهم كانوا نادرين إلا أنهم كانوا بشرًا، ولم تسنح لهم الفرص بأحسن من سنوحها لك، ولم يحابهم الله والحظ

مثل محاباتهما إياك، ولم يكن العمل الذي أتموه بأدنى إلى الحق والعدل من العمل الذي ستتمه ولا أسهل، إن أمامك دعوة عادلة؛ لأن الحرب الضرورية عادلة، والجيوش تكون رحيمة إن لم يكن لنا أمل في أحد سواها، وها هي رغبة وطننا جميعه، وليس هناك أسهل من إنجاز الأعمال المحاطة بالرعية، ما دمت تتخذ الوسائل التي اتخذها الأمراء السابق عليهم الكلام، وعدا عن ذلك كله فقد رأينا عجائب أتمها الله، فقد شق البحر، وأرسل الغمام يُظل الرسل، وأنبع الماء من حجر، وأنزل المن وكل شيء كان سببًا في عظمة الإنسان؛ لذا ينبغي أن يتم ما بقي بواسطتك إذا اختارتك العناية لذلك.

إن الله لا يفعل كل شيء لئلا يحرمنا من حريتنا في العمل، ولأن يبقى لنا نصيب في المجد.

وليس من العجيب أنه لم يأتِ بطل ممن تكلمت عليهم بما أطلب منك الآن، وإن كان قد ظهر في الحروب والثورات أن القدرة الحربية لا وجود لها، فما هذا إلا لأن الطرق القديمة كانت غير صالحة، ولم ينشأ أحد على اكتشاف طرق جديدة، فليس يشرف الرجل الحديث الظهور مثل القوانين والقواعد الجديدة التي يضعها، فإن هذه الأشياء إن كانت على أساس متين وفيها روح عظمة تجعله محترمًا ومحبوبًا، ومجال الإصلاح والتوسيع في البلاد واسع، إن في الصغار فضائل كبرى لا يخلو منها الكبار، وقد امتاز أهل وطننا بالذكاء والإقدام والحذق، فإذا جاء الحرب وأظهروا ضعفًا! فليس هذا إلا لضعف الزعماء والقواد وعدم كفايتهم؛ لأن الذين يعرفون لا يطيعون، وكل إنسان يدعي المعرفة، ولم يرفع أحد إلى الآن نفسه بالإقدام والحظ ليرغم الكل على التسليم له وطاعته؛ فنشأ من هذا أنه طول هذا الزمن، وفي جميع الحروب التي أقيمت في العقدين الغابرين كان الفشل حليف الجيوش الإيطالية المحضة، وتشهد بذلك «تارو» و«الإسكندرية» و«كابو» و«جنوا» و«فايلا» و«بولونيا» و«مستري» فإذا كانت أسرتكم الكريمة تريد أن تقتفي آثار هؤلاء الرجال الذين أنقذوا أوطانهم، فأول واجب عليكم هو الحصول على قوة حربية من أبناء وطنك؛ لأنك لن تجد آمن ولا أقدر منهم، وإن كان كل فرد منهم صالحًا، فإنهم إذا اجتمعوا يتفوقون إذا رأوا في مقدمتهم أميرًا مثلك يكرمهم ويعضدهم، فمن الضروري إذن إعداد قوة وطنية للتمكن بمساعدة الشجاعة الإيطالية من حماية وطنك من الأجانب، وإن كانوا يزعمون أن مشاة سويسرا وإسبانيا هم من أقدر الجنود وأشدهم بأسًا، إلا أن لكل منهم عيوبًا، فإذا جاء نوع ثالث فهو لا شك يغلبهم؛ لأن «الإسبان» لا يحتملون هجوم الخيالة، وجنود «سويسرا» يخافون

المشاة الذين يقابلونهم بثبات وشجاعة تماثلان ثباتهم وشجاعتهم، وإن كان مثل هذا لم يتم إلى الآن إلا أنه حدث في موقعة «رافنا» ما يثبت ذلك تقريبًا عندما هاجمت المشاة الإسبان مشاة من الألمان يتبعون خطة أهل سويسرا في حروبهم، فإن الإسبان تمكنوا بخفتهم من اختراق صفوف الجرمان، وتضييق الخناق عليهم، دون أن يستطيع الجرمان الدفاع عن أنفسهم، وكادوا يفنونهم عن آخرهم لو لم تردهم الجنود الراكبة.

فإذا عرفنا عيوب النوعين أمكن إيجاد نوع ثالث تمكنه مقاومة الخيالة دون أن يرهب المشاة، وهذا لا يمكن بإيجاد جنود جديدة إنما بتغيير نظام الحرب، ومثل هذا الإصلاح إذا أدخل رفع قدر الأمير وأعلى شأنه، فلا تدعنَّ هذه الفرصة تفوت دون أن ترى بلادك محررها في شخصك، وإني عاجز عن وصف الحب الذي يلقاك به أهل الولايات التي أغار عليها الأجنبي! وبأي ظمأ للانتقام، وبأي ثقة وبأي شكر! بل أي باب يكون مقفولًا في وجهك! وأي شعب يأبى أن يطيعك! وأي حسود يقاومك! وأي وطني يتمرد عليك! فإن هذه السيادة الأجنبية تلذع خياشيم كل واحد منا، فهل لبيتك العظيم أن يأخذ على كاهله القيام بهذا العمل الجليل بالشجاعة والآمال اللذين توحيهما الدعوة العادلة لنصرة الحق والوطن، فتنهض بلاد آبائنا تحت لوائكم، فيصدق فينا قول بترارك:

> إن الفضيلة عدوة الجهالة، تحمل السلاح وتسرع لمحاربتها، فلا تطول الوقعة بينهما؛ لأن الهمة القديمة التي تحرك قلوبنا لا تزال حية.[١]

[١] ننقل هنا أصل هذين البيتين ليزداد معناهما وضوحًا لما في كلمتي Virtù وFurore من القوة بلغتهما الأصلية:

Virtù contra’l furore
Prenderà l’arme, e fla’l combatter contro;
Ché l’antico valore
Negl’ Italici cuor non è ancor morto.

الختام

انتهى التعريب في صباح الثلاثاء ٢٧ يونيو سنة ١٩١١ بمنزلي رقم ٧٥ بولفار كارل فوجت بجنيف، وتم طبعه في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ بمصر.